دار قصص وحكايات
للنشر الإلكتروني ٢٠٢١

تريو

ملاك خليفة

رواية

تريو

رواية

ملاك خليفة

العنوان: تريو

النوع الأدبي: رواية

المؤلف: ملاك خليفة (نبذة)

قوة السرد: كتابات شبابية

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: رمضان سلمي برقي

تصميم الغُلاف: رمضان سلمي برقي

سنة النشر: 2021

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2021

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

ثلاث نساء، عانين الخيانة و التي تعني في تفسيرها الغدر من حيث لا تعلم، و الأقسى أن من لا تعلم لا يكون أبدا بعيدا، بل دوما شديد القرب!

"بحر"

قضيت ليلتي ساهرة، جافاني النوم في إنتظار آخر الأخبار، أخبار وصول الشحنة الجديدة، هاتفني خالي منصور منذ قليل مخبرا إياي انه لم يتبقى الكثير على التسليم.
دخلت غرفة أطفالي، دثرتهم جيدا و قبلتهم بحنو، هم اغلى ما أملك، ليسو هم فقط، بل هم و ابيهم الذي لم يعد الى الآن من الخارج، اخبرني أنه سيتأخر قليلا لأنه سيقابل أصدقاء قدامى ، ربما سيسهرون الى طلوع الفجر.
في طريقي الى غرفتي، تسمرت ساقاي لا اراديا امام صورة والدي التي احتلت جزءا ليس بقليل من الحائط في غرفة الجلوس، ابي الذي كان معروفا بتجبره،ابي الذي لا يرحم، ابي النكرة الذي اتى من المجهول و لا يعلم أحدا ماضيه سواي.
جابر الذي رمته الأقدار في هذه المدينة الزاخرة بالشر، بالطغيان، بالقوة، ذلك ما كان يجعلها رحبة، و ذلك ما جعل قلبه صغيرا جدا، قراراته ابدا لا تدركه، دوما كانت الكلمة العليا لعقله، هذا العقل الذي قتل كل نوازع الخوف و الرهبة داخله، هذا العقل الذي جعله يقتحم الأهوال التي نصبته ملكا على عرش الإجرام في المدينة، صاحب أكبر إمبراطورية لبيع المخدرات، امبراطورية ورثتها انا وحدي، ابنته الوحيدة.

*****

فتحت الباب حريصا ما امكنني الا اصدر أي صوت، البيت يرزح تحت صمت ثقيل، اذن فقد نامت.

اخبرتها انني سأقضي السهرة خارجا مع أصدقائي ، و لم تعترض، هي أصلا لم تعترض يوما على طلباتي، كل ما اريده مستجاب ، ما عدى شيئا واحدا فقط: ابتعادها عن هذا الطريق.

عرفتها فتغيرت حياتي، وصلت الى مكان لم احلم يوما بأن ابلغه، مليئا بالقوة، بالجاه و السلطة و الغنى، كنت قبل ذلك رجلا عاديا، به من الضعف اطنانا حملتني إياها حياتي، مات ابي عندما كنت رضيعا و لم اعرف له ملامحا و لا صوتا قط، فقط صورة مهترئة سربتها لي امي ذات ليلة قبل رحيلها، صورة قديمة لرجل يشبهني، يظهر الذل و القهر جليا في عينيه الذابلتين، خبأتها بسرعة تحت وسادتي قبل ان يراها ذلك الرجل.

ذلك الرجل الذي لم أجرؤ يوما على ان انظر له في عينيه، فبعد عودة امي ارملة وحيدة الى بيت جدي تحمل بين يديها رضيعا، لم يصدر عن جدي شيئا سوى تذمره :

–مصاريف أخرى!

هذا التذمر ما جعله يقرر قرارا لا رجعة فيه، امي يجب ان تتزوج.

رماها الى اول طارق، هذا الكائن الذي اعتقد بأنه ينتمي الى بنو البشر، لا تطرب اذناه الا الأنين النابع من امي و لا تنتشي اضلاعه سوى بضربها كل ليلة.

تحملت امي الى ان ضاقت ذرعا بهذه الحياة، و عندما امتد انتهاكه الى ابنها الوحيد المراهق سارعت الى إيقافه، و ذلك عبر سرقتها للأموال القليلة التي

كان يخبأها زوجها البخيل، مانحة إياها إلي قبل أن تطردني من المنزل، او هكذا اوهمتني عندما دفعتني إلى الخارج صارخة في وجهي:

–أنت رجل الآن، أخرج من هذا الجحيم قبل أن تتعفن فيه.

خرجت و لكنني لم أستطع الإبتعاد، نمت تلك الليلة في الشارع قبل أن أعود إليها اليوم التالي لأخبرها "فلنرحل سوية!"، لأجد البيت متفحما عن بكرة أبيه،جيراننا مذهولون فقد ألتهمته النيران في الليل و لا أحد يعلم السبب.

تسارعت أنفاسي و بدأت أشهق بصعوبة، نظرت إلى مرآة الحمام أمامي، لا مزيد من الماضي، إياك أن تتذكر ما قد ولى ياخالد، أنت اليوم لم تعد ذلك الصغير الذي كان يختبأ في خزائن المطبخ خوفا من زوج أمه المريض، أنت اليوم زوج لإمرأة لا تتكرر كثيرا، امرأة إستثنائية و غريبة كغرابة حياتها.

*****

ها قد جاء، تململت في منامي قبل أن أفتح عيني لأطالعه يغير ثيابه، كه هو وسيم!

–كم الساعة الآن؟

أجفل قبل أن يلتفت إلي باسما:

–لقد أفزعتني، ألم تنامي بعد؟

ضحكت ناهضة من السرير:

–لقد كنت انتظرك، لا اعلم متى غفوت فجأة!

اقتربت منه بتؤدة و أحطت عنقه بذراعي:

–كيف كانت سهرتك؟

–رائعة.

إبتسمت لمرأى البسمة في عينيه فأضفت بدلال:

–ألا تريد أن تعرفني على أصدقائك ؟

خيل إلي إرتباكه قبل أن يقبل أرنبة أنفي معترضا:

–ما الذي تقولينه؟ بالطبع لا! لا أريد لزوجتي الحسناء أن تعرف رجالا غيري!

إقتربت منه كالثملة:

- **أتغار؟**
- **جدا جدا جد...**

و إستحسنت المقاطعة.

*****

وجدت المال في المكان المعتاد، حرصت منذ مدة ليست بالقليلة أن تخصصه لي، مبلغا يسمح لي بعيش حياة لم أحلم بعيشها يوما، ربما يحتقرني الجميع بسبب ذلك و أولهم خالها البغيض، إلا أنني يشهد الله أنني في أول زواجنا قد أخبرتها بأنني لا أريد مالها الحرام، أنا أعمل ميكانيكيا بسيطا و ما أجنيه يكفيني، لكنه مع الأسف لم يكن يكفيها، لا هي و لا أولادنا، ما سمح لمالها بأن يقتحم حياتنا رويدا رويدا، أولا حياتها ثم حياة أمنية و سيف و لم يكتف بذلك بل إبتلع حياتي أنا أيضا، لا أعرف متى و لا كيف تحول المحل البسيط الذي كنت أعمل به، إلى معرضا فخما للسيارات، و لا كيف تحولت أنا الميكانيكي البسيط ذو الرداء الأزرق المبقع على الدوام بالشحم و الزيوت إلى رجل الأعمال صاحب النفوذ ببدل رسمية من اغلى الماركات.

شيئا فشيئا أحببت هذه الحياة،عشقت خالد الجديد، ذو السلطة و النفوذ و الجاه، و تأقلمت معه مختارا تجاهل كل شيئ.

*****

تنفست الصعداء بوصول البضاعة، وضعت مال خالد في مكاننا المعتاد، لم أجرؤ يوما على منحه إياه يدا بيد، أحببته لدرجة خوفي عليه من أي سوء و لو كان شعورا بغيضا بأن يفكر بأنني أنفق عليه، منحته كل ما إستطعت أن أمنحه إياه، و من فرط عشقي له لا أزال أحس بالتقصير، لو طلب مني نجمة في السماء لبذلت ما في وسعي لسرقتها و إعطاءه إياها.

بعد أن غادر سمعت طرقا خافتا على الباب، كانت دنيا، شابة مسكينة رمتها أقدارها في طريقي، أبي كان يخبرني دوما أننا نحن الخارجين عن القانون يجب أن نحذر دوما و أن نأخذ دوما جميع إحتياطاتنا، و مساعدة الغير هي ما سيبقينا دوما أقوياء، بعيدا عن شرور البشر و لنا هيبة، و عملا بنصيحته ساعدت دوما كل من طلب مني حسنا ما جعلني مشهورة بالكرم، السبب الذي جعل الناس عندما سمعوا قصتها دلوها علي فورا، حكت لي عن حياتها الحزينة ، طفولتها في ملجأ بسبب موت أبويها و هي صغيرة، و رفض بقية العائلة تحمل نفقة يتيمة صغيرة،و عندما غادرت بحثت عن مأوى لفتاة شابة وحيدة لا حول و لا قوة لها، و وجدته عندي.

في بداية تعارفنا لم تتجاوز علاقتنا المحسن و المحسن إليه، ثم شيئا فشيئا توطدت إلى صداقة، في حياتي لم أثق يوما بأحد أكثر من خالي

منصور و زوجي لأنني منذ كنت صغيرة كان والدي يمنعني دوما من عقد صداقات، مثلما كان يمنع نفسه، كان دوما يحرص على تفقد جانبيه الأيمن و الأيسر قبل أن يغفو، إذ بإختيارك هذا الطريق الوعر، طريق الإجرام، أنت تثبت فشلك في نيل ثقة المجتمع و الناس، فكيف تمنح ما أنت عاجز على الحصول عليه، الثقة معدن نادر جدا في حالتنا لذلك نحن لا نمنحها بسهولة، ، صدق من قال أن فاقد الشيئ لا يعطيه.

مع دنيا، كان الأمر مختلفا، صداقتها شيئ جيد، فتحت عيني على حقائق لم أعلمها يوما، و أضافت شيئا مميزا لا أفهم كنهه لحياتي،

لكنني لا أعلم متى غاب ذلك التمييز، متى أصبحت علاقتنا حذرة، متى تلبست عينيها نظرات غريبة أعجز عن تفسيرها!

*****

كم كان يوما سيئا، كثرت مشاجراتي مع منصور فهو و إن لم يفصح عن رغبته إلا أنه كان يطمع أن يصبح خلفا لوالدي بعد وفاته، ما صدمه بشدة إختياره إياي، و عزوفه عن الكلام معي لزمن طويل ،

أتذكر كيفقال لي جابر قبل وفاته بيوم واحد:

–أريدك أن تواصلي العمل من بعدي، أن تكوني كل شيئ بنيته و صنعته يوما، أنت، إبنتي الوحيدة و لا أحد غيرك.

غادرت المنزل متضايقة، ذهبت إلى أول مكان أذهب إليه عندما تكون حالتي بهذا السوء.

وجدت شابا جالسا على مقعدي المفضل، فلم أكترث، كنت غاضبة و جاورته محدقة في الإتساع الشاهق أمامي، أعشق البحر، أبي كان يقول لي دوما بأن عشقي له إنعكس على عيني ، جعل ألوانها أمواجا تتراقص في هيجان ساخر.

*****

العمل في تراجع، لا أعلم ما السبب، و لكن ما أعلمه جيدا أن رئيسي يفكر جديا في التخلص من بعض العمال، أين سأذهب؟

ماذا لو إمتد الطرد لي ماذا سأفعل؟ منذ مقدمي إلى هذه المدينة و أنا أتنقل من شارع إلى شارع، و من محطة إلى محطة، إلى أن وجدت هذا العمل، الذي منح لي رفاهية تأجير غرفة فوق أحد السطوح، إذا ما فقدته أين سأنام؟

كنت غارقا في أفكاري السوداء، عيناي تتساءل أمام الموج الأزرق عسى أن يعكس حلا على صفحاته اللامعة، عسى أن يحيي الماء عزيمتي كما أحيا كل شيئ آخر، قبل أن تلفحني فجأة رائحة جميلة، عطر حاد مسكر للحواس، امرأة في مقتبل العمر جاورتني الجلوس.

*****

تراكمت علي الأمور، وحيدة في هذا الحاضر البائس، أمارس عملا لا أفقه منه شيئا، و لكنني يجب أن أحافظ على ما بناه أبي فلا وريث له سواي، تراكمت أحزاني في غفلة من أمري، كنت فتاة مدللة أبيها الوحيدة

لا أهتم لشيئ قبل أن ترميني الأقدرا في هكذا طريق وعر، لم أحس سوى بدموعي تهطل على وجنتي ،غامت عيناي و أصبحت لا أدرك البحر، أراه أمامي ضبابيا، لم أعد أرى سوى حيرة و آلاما تعملان نهشا في تماسكي المزعوم.

أحسست بنهوض الشاب من جواري، المسكين ربما كان أيضا يعاني،لا ينقصه بؤسي أنا أيضا.

–تفضلي.

شهقت فزعة عندما إستدرت لتسقط عيني في بئر أسود سحيق، عينين رجوليتين شديدتا السواد تحدقان بي بمؤازرة ، لم أرى مثل جاذبيتهما في حياتي، إستيقظت من تفحصي لملامحه خجلة فوجدته يمسك بين يديه قنينة ماء صغيرة و محارم ورقية، إشتد خجلي و أنا أرفض مساعدته بلطف، إلا أنه أصر بشدة عندما رأى دوعي لا زالت تنهمر و لا أقدر على إيقافها، ما جعلني أوافق على مضض، قبل أن يعود للجلوس في مكانه.

*****

امرأة حزينة بارعة الجمال!

هشاشتها تضاعف روعتها، ساعدتها حسب إمكانياتي المحدودة ثم عدت لمجاورها، إحساس عميق لي أراد المشاركة، لا شك أن كلانا تتلاعب بنا رياح الحزن في قهر و إن تعددت الأسباب.

–أفضل؟

أومأت برأسها ببطء و مدت يدها بتردد تعيد لي الماء، إلا أنني أخبرتها باسما بأن تحتفظ بها، فمن الجلي أنها تحتاجها أكثر مني.

تكلمنا قليلا، لديها مشاكل معقدة في العمل، الذي لم تخبرني بكنهه تحديدا، و أخبرتها بأنني أنا أيضا لقمة العيش هي سبب معاناتي.

كلامها و تصرفاتها تنم عن تربية راقية، ما يعبر بوضوح عن ترفها، يا لحظها!

خجولة قليلا، تنتابها الشجاعة أحيانا لتثبت زمرديتيها في عيني، ثم ما تلبث أن تخفيهما عني بسرعة.

لها عينان، يا سبحان الله، لكأن أمواج البحر الأزرق قد لطخت حدقتيها فجعلتها زمردية ساحرة.

–يبدو إنك تحبين البحر كثيرا

اومأت ببطء ما شجعني على المواصلة، لا اعلم لما أحسست بأنني أريد أن أطيل هذه الجلسة وبشدة.

–أنا أيضا أعشق البحر ،كلما أنتابني إحساس بغيض بالألم أو الحيرة أهرع فورا اليه، لونه واتساعه، جماله المميز والأخاذ، ما يضفي على ذهني صفاء ،ما يحسسني بالوضوح، ما يجعلني دوما و دون عناء أجده يمنحني بكرمه حلا لكل معضلة اعيشها.

–لكنه غدار

إجابت بصوتا غامض، لا أعلم لما خيل إلي انه مظلم:

–أنا أيضا أحب البحر لكن هذا أبدا لم ينجح في منحه ثقتي ، أعجز عن إيجاد الوضوح فيه، تحت اللون الأزرق و الاتساع الشاهق مئات و ملايين من الآلام والأوجاع التي لا ندري عنها شيئا، انه محير ،وراء هذا الجمال يكمن الغموض وليس كل غامض جميل ، إياك أن تنخدع بجمال البحر، فهو متملك أناني، لا تؤثر به حكاياتك و لا آلامك مثقال ذرة، إذا ما رميت عجزك بين أمواجه فلن يرحمك ، يبيع جلساتك الطويلة و كلماتك الكثيرة التي تتفوه بها أمامه و دموعك التي تذرفها في حضوره في سبيل نفسه، في سبيل أن يبتلعك أنت أيضا في جوفه، في سبيل أن يدفنك في أعماقه، في سبي أن يضيفك أنت أيضا إلك كنوزه، إلى عمقه المجهول،

البحر لا يقبل أبدا الخيانة ، هو الوحيد الذي نجح و منذ آلاف السنين في سن قوانينه الصارمة،إذا كنت لا تحسن السباحة فإياك أن تتعامل معه .

ذهلت من كلامها، نظرت إليها مصعوقا:

–أنت تفهمين البحر جيدا!

أجابت ولا زالت على سارحة:

– ألاًيقولون لكل نصيب من إسمه؟

دون أن أشعر، مددت يدي إليها:

– خالد

و عل إستحياء أجابت:

–بحر.

*****

ثم تتالت اللقاءات بدأت بالصدفة ثم استمرت،

كشفنا لبعضنا البعض كل جوانب حياتنا،

لم أخبره يوما عن عملي

فضلت ذلك خوفا من الرفض،

هو الميكانيكي البسيط الذي قدم من ريف بعيد يعيش فقرا مدقعا،

و أنا بحر الفتاة الغنية،

لم اقترح عليه المساعدة

شيئا ما قويا في داخلي أراد لنا قصة بريئة لا تلوثها الأطماع،

كان ذلك قبل أن اكتشف فجأة أنني أعشقه و كثيرا

لقاءاتي المسروقة معه كانت ترياقا للحياة المريضة التي أعيشها، جرعة من المخدر اللذيذ الذي ساعدني على تحمل

التوتر والقلق أضف عليهما الوحدة، كان بالنسبة لي عائلتي الجديدة و التي إخترتها بملء إرادتي، وإن لم يربط شي بيننا

هذا الخالد الغريب تسلل في غفلة مني أثناء حديثنا وضحكتنا مستوطنا قلبي.

*****

كان يوما جميلا، تلاقينا كعادتنا في مكاننا المفضل ، الذي جمعنا أول مرة و الذي كان شاهدا على قصتنا، و الذي كان شاهدا على عشقي، إمرأة ملعونة لا أعلم متى تسربت داخل جلدي، متى إختلطت بدمي، متى إستعمرت شراييني، لا اعلم متى عشقتها، جمالها الأخاذ ساحر وغموضها فعل به الأفاعيل، غموضها ما كان يجذبني دوما إليها حاولت كثيرا سبر أغوارها و لم أقدر، ينتابني إحساس قوي بأنها تخفي شيئا بل أشياءو على غاية الأهمية أعجز عن معرفة ماهيتها مهما حاولت هذه المرة، كان يوما مختلفا ، أحسست بها أكثر ضعفا وأكثر هشاشة وأيضا أكثر استعدادا للبوح، يوما،أخبرتني بعملها الملعون.

إندهش بل صعق، كنت مرعوبة من ردة فعله، خائفة حتى الموت، أردت أن أضع حدا لهذه العلاقة الهشة التي تترقص برعب فوق أسس لا ثقل لها، حب لا هوية له،أخبرته بكل ما يخصني، أنا بحر من أكون، من أبي و ماهو عمله، أتذكر جيدا كيف نظرإلي بخيبة أمل، كيف أطال النظر، سواده الغاضب كان يقطعني من الداخل بسكاكين حادة، قبل أن يستقيم فجأة و دون كلمة واحدة، غادر. بكيت يومها، ذرفت دموع الحسرة و قلة الحيلة كثيرا، رحل و لن أراه مرة أخرى،خسرت حبي الأول، لا رجل على هذا الكوكب به من الشرف ما يمكن أن يقبل بحالتي زوجة له، أسوء فترة مرت في حياتي كلها ، كانت أقسى حتى من موت جابر، فقد أحسست فعلا بأنني وحيدة، و بأنني أجهل ماذا أفعل. إلى أن أتى ذلك اليوم،يوما عاديا حزينا ككل أيامي بعد هجره إياي،

كان ذلك قبل أن أجده بشحمه و لحمه واقفا على بابي، لم يقل سوى كلمة واحدة، أحيت ما مات بداخلي:

-أحبك. تحدينا الجميع و الأكثر صحة، تحدت، نحتني أنا جانبا تاركا لها الساحة وحيدة، واجهت خالها الذي غضب بشدة لجنونها على حد تعبيره، و لغبائي أنا إذ كيف لي أن أجرؤ على الزواج منها، أنا النكرة، و بحر سليلة الحسب و الترف كيف أجرؤ على مجرد التفكير في ذلك؟

كان جليا أنه كان ينوي إستعمالها في توسيع عمله، كان يخطط تزويجها لرجل يشبهه، لم يصدق كيف اختارتني أنا الفقير والمعدمو قليل الحيلة متمسكة بي بقوة مدهشة لي أنا شخصيا، ورفضت إقتراحاته و التي لم تكن قليلة! لماذا وافقت؟ لماذا سلمت عنقي لهكذا حياة؟

لأنني أحببتها و بشدة ، كانت لحظة فارقة، تخيلت نفسي أواصل حياتي بدونها و النتيجة كانت مريرة، الغموض الذي يلفها و الهالة التي لا أستطيع إختراقها، رغما عني لونا حياتي القاتمة بألوان مشرقة، لم أستطع أن أهتم لسواها، لا حياتها و لا عملها،لم أكترث بأي شيئ آخر عداها هي، لم أفكر سوى بالمرأة التي كانت حبي الأول.

وأخيرا تزوجنا، سعادتي تفوق الوصف ،أحلق في سماءها فوق الغيوم الناصعة ،خالد هو الشخص الوحيد الذي أدخلته حياتي باختياري، اكثر من أحببت على الإطلاق، لم يكن يريد أن يدخل في مجال عملي ولم أصر عليه، تمسك بشدة بعمله ومحله البسيط وظننت من شدة غباءي انه موافق، وانه يتغاضى على كل شيء ما دمنا معا، لا عملي ولا من اكون يمكن أن يهتم بهما ،وكنت مخطئة، اكتشفت ذلك بعد زواجنا بزمن قصير ،عندما حادثني على استحياء وسالني لما لا أتخلى، لماذا لا أتخلص من هذه الحقيقة البشعة التي أصرعلى مرافقتها في سني حياتي الفتية، طلبا مني أن ارمي كل ما بناه أبي وراء ظهري وابقى أنا فقط في حياته، بحر وحسب!

يومها ثارت بشدة، فتحت امامي كصندوق واضح المحتويات ،و محتوياته لم ترق لي أبدا، هذا العمل وهذه الحياة وبحر هم نفس الشخص ولا مجال للانسلاخ، كيف ترمي كل ما تعب أباها في بنائه ليورثها إياه،هذا العمل هي كل ما قضت طفولتها وسني مراهقتها تتعلمه و لا تفقه شيئا آخر غيره، ولا مجالا للابتعاد عنه، هذا العمل ما سيكفل لها ولنا الحياة التي نريدها وما سيبقينا دوما مرفوعي الرأس ،

ما جعلني أصمت، و سلكت طريق اللامبالاة، تظاهرت بأنه غير موجود وإنها بحر فقط كما كانت دائما تقول ،أخبرتها إنني لا أريد لها مالا في بيتي لأنني و كما هو واضح الرجل هنا، سآكل ما يسمح لي جيبي بأكله،و سأعيش وفق إمكانياتي المتواضعة، ووافقت برحابة صدر،

لكنني لا أعرف تحديدا متى، ربما بعد أن إنجابنا طفلينا بدأ مالها يتسلل كأفعى سامة إلى بيتنا، وإندثر الفقر الذي اختارت عيشه معي ،أنا نفسي بدأت أرى جيبي ينتفخ

بأموال لا أعرف مصدرها و لا كيف أتت إلي، بدأت أرى نفسي أتحول شيئا فشيئا إلى شخص آخر، يروقني جدا،
و إخترت عدم المعرفة.

*****

تتالت الأيام ومرت السنوات بحلوها ومرها، ظننت بأنني أعيش حياة عادية كأي زوجة تعيش مع زوجها الذي تعشق، أنجبنا أبنائنا, الهتني حياتي كأم عن خالد وحتى عن العمل، و في غفلة مني هب الرعب على قلبي من حيث لا أعلم، الرعب من أن يعاقبني الله في اولادي، كنت أعلم بيني و بين نفسي أن ما أعمله لا يجوز، و أنه يضر أرواحا شابة لا ذنب لها، إلا أن عنادي المتوارث عن جابر ما دفعني إلى محاولة إثبات نفسي، أما بعد إنجابي أبنائي فقد أصبحت ساقاي تصطكان هلعا كلما إبتعدا عن ناظري،، لم اجرؤ أن أبوح بمكنونات نفسي لأحد حتى له،، خفت من أن ينظر لي نظرة دونية، من أن يكتشف فجأة ضعفي و قلة حيلتي، من يكتشف فجأة بأنه ليس متزوجا سوى مجرمة، من أن يحس بالخطر معي ، أصبحت حريصة على اولادي و أكثر حرصا عليه، تزايدت صدقاتي لم أرد يوما يدا امتدت الى ،اخذت كل احتياطاتي على رأي جابر، حتى مؤخرا، فتاة شابة مسكينة أتت تطلب مساعدتي رق قلبي لقصتها، اسمها دنيا تربت في ملجأ ،طفولتهاو حياتها في الملجا كانت قاسية، طلبت مني ملجأ جديدا وعملا ، أسكنتها المخزن تحت شقتي مباشرة و دبرت لها عملا عند أحد معارفي، و أغدقت عليها المال عل ذلك يقتل ذنبي!

*****

سنين مرت من عمري، غيرتني كثيرا، تغيرت حياتي بأكملها، كم أن المال جميلا، لم يكذب من قال بأن المال يجلب السعادة لأنه حقا يفعل.

لم أعد معها الكرة، لم أحدثها عن عملها مرة أخرى، لأنني بطريقة ما أصبحت أنا أيضا أنتفع به.

لكن هناك شيء ما، كوابيس ، أم أحلام مريرة، لا أستطيع أن أفهم، ذلك الرجل أصبح يزورني كثيرا في الآونة الأخيرة، أراه بوضوح كيف كان يكيل الضربات لجسد أمي الضئيل، لكنني فقدت عيني ذلك الطفل المسكين الذي يحاول بشق الأنفس كتم عبراته، بل أصبحت أنظر إليه بعيني رجل القوة عنوانه، رجل يريد أيضا أن يمارس العنف على أجساد النساء الواهنات، أصبحت طامعا في قوته، أريد أن أكون رجلا مثله، أريد أن أفعل مثله، و تتزايد رغبتي هذه يوما بعد يوم.

*****

اليوم لا أدري لما ترفض أمي بإصرار مغادرة تفكيري، أمي التي لم توافق يوما على ما كان أبي يفعل، علمت ذلك منذ نعومة أظافري، رغم أن خالي منصور داائما ما ساعد أبي و قدره كثيرا، إلا أن أمي المسكينة المغلوبة على أمرها، رغم حب أبي الكبير لها، و رغم الرغد الذي حرص على إمتاعها به، إلا أن ذلك لم ينجح في جعلها ترضى، إعتراضها الصامت هو السبب في إصابتها بمرض خطير أدى إلى وفاتها مبكرا، ليلة وفاتها رأيت أبي يبكي لأول مرة في حياتي، كنت صغيرة جدا و لم أكن أعلم وقتها ما هو الموت، ماهو الفقد، ماذا يعني أن تفقد أحد والديك، ماذا يعني أن تستيقظ يوما

فلا تجده، ماذا يعني أن تحزن أو تفرح بدونه، أن تختنق بدموعك دون أن تجد حضنه الدافئ في إنتظارك.

الجميع كان خائفا في تلك الفترة، إذ قد ظنوا أن زمن المخدرات قد ولى، و أن هذا الفقد القاسي هو درسا لجابر حتى يتوقف، منصور نفسه كان كذلك، خوفه من أن يفقد العمل الذي يدر له الذهب أكبر من حزنه على أخته، و لكن والدي، و كعادته دائما، يفوق كل التوقعات و يعود بعد أيام قليلة، بل و يحرص أكثر على إزدهار تجارته، مربيا إياي على الحفاظ على شقائه بعد موته، دون أن ينسى بأن يرسخ في ذهني أن موت أمي هو قضاء و قدرا و لا علاقة له بعقاب الله،

و فهمت فيما بعد أن هذه الحياة و التي صنعت منه جابرا لا يرحم، كان يقدسها بشدة، و لا يسمح لشيئ بإبعاده عنها، لا موت زوجته الشابة، و لا حتى أنا إبنته الوحيدة.

*****

إستيقظت هلعا، كابوس آخر، رغبة أخرى تفترسني من الداخل في العنف، لم أجدها بجواري، ربما كانت مع الأولاد، تنفست الصعداء، هكذا أفضل.

تجرعت قارورة الماء حتى آخر قطرة عسى أن تخلصني من جفاف حلقي، ثم حاولت العودة إلى النوم.

الصباح كان أفضل، إستيقظت على قهقهات تأتي من غرفة الجلوس، كانت بحر تتسامر مع الجارة الجديدة، الصديقة التي إتخذتها مؤخرا، سألتها عنها ذات مرة فإسترسلت

في الحديث دون توقف: فتاة مسكينة تربت في ملجأ، فقدت عائلتها صغيرة، جاءت إلى هنا لتبحث عن عمل و ربما مأوى، و هو ما لم تبخل عليه بحر كعادتها.

هي فعلا فتاة مسكينة، و لكن ذلك فقط أمام زوجتي، لأنها أمامي أنا ليست بمسكينة أبدا، بل امرأة لعوب حاولت و لا زالت بشتى الطرق إستمالتي، و بطرق قذرة جدا.

المخزن الذي وهبته لها بحر تحت شقتنا مسكنا لها، منحها الفرصة في رؤيتي و مقابلتي على الدوام، و هو ما جعلها تتحين الفرص لإيقاعي في شباكها، يساعدها في ذلك طيبة زوجتي و قلبها الرقيق الذان إتخذا منها مصدرا لتفكير ذنوبهما،و لكن من الواضح أنها تعتقد بأن كل الترف الذي نحن فيه سببه بائع السيارات الفخمة و ليست بائعة المخدرات،

و قد راقني ذلك جدا.

*****

أنا أختنق من الخوف، يكبلني الرعب بأسلاك صلدة منذ إكتشفت مرض إبني، إبني يشكوا من مرض عضال، أخبرني الطبيب أنه وراثيا و يعتقد أنه من الأب، كذلك أخبرني بأنه سيظطر لمعايشته ، ليس بالخطير و لكنه ليس أيضا بالبسيط، خاصة على جسد إبني الصغير،

إبني المسكين، لا زال صغيرا جدا على المعاناة.

صعق خالد عندما سمع الخبر، إرتعبنا عندما وجدناه مغمى عليه في غرفته، كان يلعب مع توأمته قبل أن تصرخ الأخيرة بهلع،

كم كانت قاسية تلك الليالي! و نحن نركض ما بين طبيب و غيره عندما كشفنا مرضه اللعين.

تضاعف خوفي و هلعي من أن أفقد فلذة كبدي، دعوت الله كثيرا أنه إذا كان لا بد من العقاب فليعاقبني أنا، صغاري لا ذنب لهم.

ضاعفت في أعمال الخير، بل و بحثت بجد عن كل من يحتاج المساعدة، حتى دنيا كثفت لها المال بشكل دوري، كل مرة أمنحها رزمة أضخم من سابقتها ، فقط لتدعوا لإبني حتى لا يصيبه مكروه.

أتنفس بصعوبة، الهواء يرفض بحزم أن يدخل صدري، لماذا يا الله؟ لماذا يحدث معي ذلك؟

سيف لم يتم بعد الخمس سنوات، يشكو من مرض عضال، حاول الطبيب طمأنتنا بأنه ليس خطيرا و يلزمه العناية الفائقة، و لكنني أعلم جيدا بأن جسدا هشا كجسد إبني الصغير لن يستطيع تحمل أحد نوباته.

أياما و نحن نركض من مستشفى إلى آخر، و من طبيب إلى آخر، و لا فائدة.
كرسنا كل ما نملك، و أخبرنا كل من قابلناه بأننا مستعدون لإعطاء ضعف ما يطلب لمن يخلص إبني من المستقبل المظلم الذي ينتظره فاتحا ذراعيه، و لا فائدة.
كنت مخنوقا جدا، لا أعرف ماذا علي فعله، و ما أسوء ذلك، أموت هلعا كلما شاهدت إسم بحر يرن على شاشة هاتفي، يبدأ عقلي فورا بتصوير أسوء السيناريوهات، هي السبب في ما نعيشه من سوء، أخبرتها قبلا أن تتوقف، تشبثها الغبي بهذه الحياة المسمومةهو ما رمانا عائلة بأكملها تحت شقي المصائب، رفضها للإستماع إلي ما أوصلنا إلى هذه النتيجة المخيفة.
عدت إلى المنزل، كعادتي يحفني الغضب من كل جانب، ما أن وطأت أول درجات السلم حتى رأيتها، رائحة عطرها المغوية تسبقها دوما، ترتدي فستانا مكشوفا يبدو عليه أنه غالي الثمن من المؤكد إشترته من مال بحرالتي تسعى لنيل المغفرة بسذاجتها المعتادة عن طريق الفتاة البائسة على حد قولها،كانت تتظاهر بفعل أشياء لا أهمية لها أمام المخزن، من الواضح أنها تحاول إستمالة الصيد الثمين بالنسبة لهاو تحلم بالإنتقال إلى الطابق العلوي، ليست في جمال زوجتي الحاد و لكنها مقبولة ناعمة و بسيطة، و هذه الليلة أنا لا رغبة لي بمواصلة الصعود، تتأجج تلك الرغبة العنيفة في أن أقلد ذلك الرجل في ما كان يفعل، تشتعل بقوة في صدري أكثر من أي وقت مضى، مرض إبني، عجزي و غضبي الأعمى من زوجتي أججاها بقوة، أريد التخفيف عن نفسي، أريد أن أضرب و أركل و أعنف، أريد أن أنسى هذه الحرقة التي في قلبي،

تجمدت في مكاني أحدق بها غائبا عن الوعي، قبل أن أعود أدراجي و أدفعها إلى الداخل و أغلق الباب بقوة.

*****

إتصلت به مرارا و لم يرد، ليس من عادته التأخر أكثر من هذا، لكنه غاضب و بشدة، أراها منذ أيام على وجهه لكنه يرفض النطق بها، الصراخ بها على وجهي: أنت السبب. غلبتني دموعي كالعادة، و كأنني لم أكن أدري، و كأنني لم أكن أبكي كل ليلة بخفوت أجيده بشق الأنفس حتى لا يسمعني، أرتجف من الهلع كلما دخلت إلى غرفة أبنائي، كلما إقتربت من سرير سيف، كلما راقبت أنفاسه بهوس، يقتلني الذنب، ذلك ما دفعني إلى إخبار منصور بأنني سأتوقف، يجب أن أفعل، أعلم أن قراري كان متأخرا و لكن حياة أبنائي على المحك.

هاج و ماج، لم أره يوما على هذه الحالة، طوال حياتي أحسده على رصانته، حتى عندما إفتككت منه المنصب لم يثر هكذا، تلبسه الجحيم وهو يصرخ في وجهي، كيف أتوقف؟ كيف أبني ما شقى أبي طوال حياته ليبنيه؟ أأظن أن الأمر سهلا؟

لا أحد سيسمح لي و أولهم المروجين، سيقتلوننا قبل أن يفعل القدر، أنا و عائلتي و هو أيضا، الجميع يعرف إسمي و يعرف ماذا أعمل تحديدا، المال الذي أجنيه هو ما يبقيني بخير، هو ما يقيني شر السجون، و ما يبقي عائلتي بعيدا عن كل سوء.

ثم أعلنها بوضوح في وجهي، إذا ما فكرت بهذا الغباء مرة أخرى، فستكون نهايتي على يديه هو قبل الجميع.

*****

نظرت إليها عارية بجانبي، شفتاها متورمتين و الكدمة الشديدة الزرقة على عينها اليسرى تعلن عن وجودها بوضوح، رباه، ماذا فعلت؟

بعد أن دفعتها داخل المخزن، لم أحس بنفسي إلا و يدي تجذب خصلاتها بقوة، تضربها في كل مكان طالته، حتى وجهها لم يسلم، بعد ما أن أخرجت كل ما كان مخزنا في جسدي من الرغبات العنيفة، ذللتها بشكل آخر.

الغريب كان صمتها، كانت مذهولة و مرعوبة، لكن صامتة، ربما خافت من علم زوجتي بالأمر.

زوجتي! ما إن خطرت على بالي حتى نفضت عني الغطاء بسرعة و بحثت بجنون عن ملابسي، بحر، لو علمت ستقطعني إربا!

نظرت إلي بحزن لائم قبل أن تعود لتندس تحت الأغطية بإذلال، تحاشيت النظر إليها ما إستطعت، ما أن أتممت إرتداء ملابسي حتى قفزت بسرعة خارجا.

*****

و أخيرا إستقرت حالة إبني، بدأ يستجيب للعلاج، فرحت كثيرا، فقد إستقرت حالة عائلتي بذلك، بذلت الغالي و النفيس في سبيل علاجه في أفضل المستشفيات و على يد أمهر الأطباء، كثفت عنايتي به و أخته، بدأت أبتعد رويدا رويدا عن العمل و عن منصور، لن أرضخ له، سأتخلص من هذا المصير المشين، سأرمي له كل شيئ في وجهه و أخبره بأنني لست وحيدة بعد الآن، لست مسؤولة عن نفسي فقط، أصبح لدي عائلة، زوج يحبني و أبناء يجب أن أراعيهم و يجب أن أضمن مصالحهم بعيدا عن هذا العفن الذي يصر على يدفنني به.

إهتممت أكثر بخالد، لم أفوت أي فرصة لأخبره بأنني سأبتعد عن هذا المستنقع، سأتخلص من هذا الوحل، هو و أطفالي هم من يهمونني، أكثر من العالم و أكثر من جابر.

*****

عادت حالة إبني إلى الطبيعي، بحر أصبحت تهتم أكثر بأبنائنا ، أخبرتني في أكثر من مناسبة أنها ستتوقف عن بيع المخدرات، هي فقط بصدد تمهيد الأمر لخالها، تنتظر اللحظة المناسبة لتبتعد مرة و أخيرا.

أما بالنسبة لي، فقد كنت مشوشا، ما ظننته مجرد نزوة أو حالة من اليأس تكررت و كثيرا، النشوة أعمتني، تكررت مرة ثانية في الليلة التي تليها عندما كانت بحر ترافق سيف في المستشفى ، و مرة ثالثة عندما بدأ العلاج، و مرة رابعة عندما بدأ إبني يتحسن، و توقفت عن العد.

دنيا صامتة و حريصة على عدم رؤية بحر بعد كل علاقة عنيفة تعرضت لها، و مع إنشغال بحر بالأبناء، ما فسح لي المجال لألا أتوقف.

لم أكن أستطيع التوقف.

*****

حياتي الطبيعية عادت، حياتي الأسرية بدأت ألملم خيوطها، بعد الصراع الصامت الذي كنت أخوضه معه، اليوم عدنا إلى سالف عهدنا و كأن ما كان لم يكن.

هذا اليوم كان من أبشع الأيام التي عشتها في حياتي، قضيت يومي كاملا مع أطفالي، خالد لم يكن في المنزل، و دنيا منذ مدة رأيتها آخر مرة، المسكينة كانت مهشمة، في عيناها كدمة زرقاء بشعة و شفتيها متورمتين، أخبرتني بأن أحد الرجال في الحي قد سال لعابه للصيد السهل و طمع في نيل الفتاة التي لا ماض لها و لا مستقبل، يومها شددت عليها أن تخبرني من هو، و لكنها لم ترد أن تفعل، تمسكت برفضها مخبرة إياي بخوفها من أن يعيد الكرة إذا علم بأنها إشتكت لي.

أخبرت خالي بما حصل لها و طلبت منه أن يحاول الإعتناء بها، المسكينة، و إذا ما لزم الأمر أن يعين لها حارسا، فهي بعد كل شيئ قد إستجارت بنا،

يومها لم أفهم نظراته المستهزئة، كيف إبتسم لي بسخرية و خرج!

*****

لا تتكلم، هي فقط لا تتكلم، تشجعني بصمت على المواصلة، و هو ما أريده و بشدة، أحس بالقوة بعدما أفعل، أنني أقوى من الجميع و أن ذلك الرجل لن يستطيع إخافتي بعد اليوم و أنني أفوقه قوة و بإستطاعتي النيل منه، أنا لست ذلك الميكانيكي البسيط الذي أتت به بحر إبنة جابر من اللامكان، لست ذلك النكرة الذي تزوجها بثراءها و غناها الشديدين، إبنة الحسب و النسب الكاذب.

أنا خالد، الذي لديه مخالب، و الذي بإمكانه الثأر لأمه، بإمكانه العنف و القسوة!

دنيا صامتة و ضعيفة، و لكنني أعلم معدنها جيدا، هي تظن بأنني بإمكاني مكافأتها،بإمكاني التخلص من بائعة المخدرات و الزواج بها هي، تتحمل لأنها تظن أنه بعد هذا الإذلال يمكن أن تصل لنهاية سعيدة، يمكن أن تصبح أخيرا زوجة لي، أنني سأرمي بحر بكل البهرج حولها و سأختارها هي لأخلصها ما حاضرها البائس، كم هي ساذجة!

*****

هذا اليوم كان بشعا، بشعا بشكل لا أجرؤ حتى على تذكره، إستيقظت باكرا كعادتي، خالد كالعادة لم يكن هنا، تركته في الآونة الأخيرة ليرفه عن نفسه مع أصدقائه، فما عشناه لم يكن سهلا.

جلست مع أولادي مطولا ألاعبهم و أراقب إبني المريض و أعطيه الدواء، اليوم لا أعلم ما حل بي، فقط إحساس بغيض ينزغ قلبي، إحساس سيئ جدا و كأن قلبي سيقفز من مكانه، إبني لم أفهمه، ينظر لي بنظراته البريئة و لا يكف عن النظر ، شممته كثيرا و قبلته أكثر، حكيت له عن الماما عندما كانت صغيرة، طوال النهار بقيت

أحتضنه و ألاعبه و أمنية، أقبل أصابعهما الصغيرة بين الفينة و الأخرى، تبا لها الألم! لا يريد أن يدعني و شأني، كانت لحظة، لحظة فارقة عندما نظر إلى عيني بقوة ووضع أصابعه الرقيقة على وجنتي و همس بصوته العذب:

-أمي لا تبكي، سأكون سعيدا جدا!

*****

ذلك اليوم، كنت في المعرض صباحا عندما إتصلت بي دنيا ووعدتها بأنني سأمر عليها في المساء، تطورت العلاقة بيننا كثيرا، ما بال هذه المرأة؟ ألا تخاف ألا أقتلها يوما ما؟

الإذلال الذي أجبرها على عيشه معي و مع ذلك هي لا تتراجع ، لا تطلب مني التوقف، رغم أنها لا تصدر صوتا إلا أنني أراه جيدا في عينيها الثعلبيتين، في تصرفاتها الدنيئة ، الطمع هو السبب،

لا زالت تعتقد بغبائها أنني مصدر الأموال الكثيرة التي تتفضل بها عليها بحر كل مرة، و لم أرد أن أصلح ظنها ذاك، شيئ ما في داخلي يدفعني أن أكون نسخة أكثر قوة و لا أستطيع أن أحجمه، لا يهم إن كان كذبا، و لا يهم إن كان من يراني كذلك مجرد نكرة لا أصل لها، المهم أنني أنتشي كثيرا عندما ألعب ذلك الدور.

عدت مساء إلى المنزل، و إتجهت من فوري إلى المخزن، بحر لن تلحظ غيابي المستمر في الآونة الأخيرة لأنها تولي جل إهتمامها لإبننا المريض، لكنني لم أستطع الدخول، ما أن فتحت دنيا الباب حتى سمعت أصوات صراخ عالية آتية من الأعلى،

من شقتي تحديدا، صادرة من امرأة أعرفها جيدا، تنادي باسم كان من إختياري أنا لإبني الوحيد: كانت بحر تصرخ باسم سيف!

*****

لم أعلم كيف مرت الأيام ، لازلت محبوسة في اللحظة التي دخلت بها الغرفة لتأتفقد أبنائي كالعادة ، في اللحظة الملعونة التي اقتربت فيها من سرير ابني سيف لأوقظه، في اللحظة التي اكتشفت بصدمة انه لم يكن يتنفس، ناديته مرارا وأمرارا بصوت أعلى مما أيقظ ابنتي الصغيرة التي قفزت تتعلق بذراعي بخوف و ذعر شديدين تتطلع إلي بعينيها البريئتين وأنا اضرب أخاها على وجهه و وجنتيه بكفي بقوة وأحركه وأحاول إفاقته، أحمله وأركض به إلى دورة المياه و أرش وجهه الصغير بالماء، لا اعلم لما فضلت الاعتقاد بأنه ربما كانا يلاعبني او ربما مجرد نوبة إغماء كالعادة، لم استطيع أن افكر ولو للحظة بذلك الهاجس المخيف بأن فلذة كبدي قد فارقني، وكأن أحدا اغلقي علي في تلك اللحظة ولم استطيع المغادرة بدوري، وجه ابني لا زال امامي يضحك ويلعب ويغني ويطلب حضنا قويا كالعادة، يطلب أن أخبأه بين ضلوعي، يطلب بأن أطمئنه ان الماما لن تتركه مهما حصل، إن الماما إذا كتبت له المعاناة فهي ستحرص على المعاناة قبله وبدلا عنه إن استطاعت.

اليوم ابني الصغير يحتضن التراب بدلا عن ذراعي، ترى هل هو خائف كعادته عندما يواجه الظلام!

لا زال حلقي يؤلمني، لا اتذكر كيف صعد خالد إلى المنزل، كيف افتك جسد ابني مني و حاول إفاقته بهلع هو أيضا، كيف قرب رأسه إلى قلبه و تحسس نبضه و هو يصرخ باسم وحيده برعب،

كيف نظر الي تلك النظرة السوداء متفوها بالحقيقة البشعة : لقد مات.

*****

الوقت يحبو، يصر أن لا يمر، امشي في الشارع تتراكم على كتفي العديد من الخسائر، ابشعها خسارتي لإبني الوحيد، ابني الذي لم يكن قد بلغ من العمر خمس سنوات، أنا من إختار له إسمه، أنا من ظننت أنه سيرافقني طوال عمري، أنا من رضي بعمل أمهم المشين فقط لأضمن له حياة أفضل من حياتي ،ابني الذي كتب له أن يعاني في صغره من مرض لا يستطيع جسده الهش تحمله، لا أزال أهمس كالمجنون، أتساءل ذاهلا بيني وبين نفسي ألم يقل الطبيب انه سيصبح بخير؟ ألم يقل بأنه سيستطيع تخطي الأمر؟ كيف تسرب من بين يدي ؟وأين كنت أنا ؟

يجيبني ضميري صارخا بلوم : أنت لم تكن موجودا ! بحر وحدها من عانت مرض ابنها، من سهرت الليالي بجانبه، أنت أيضا سهرته مثلها ولكن في مكان بعيدا كل البعد عن أبويتك لابن مريض !

شيء ما يتسلل هامسا لي بفحيح، رغما عني يتحكم بي بقوة : بل بحر هي السبب ! ألم تخبرها فلتتوقف؟ فلنعش حياة سوية كأي عائلة طبيعية!

،هي لم ترتدع، هي الوحيدة المسؤولة و كونها أم ثكلى لا ينفي كونها هي السبب، واخترت تصديق ذلك.

*****

كنت جالسة ذاهلة كالعادة فوق سريري ابنتي أتطلع بذهول إلى سرير ابني الغالي الخالي من جسده الصغير، لعبته المحشوة المفضلة تتوسط الوسادة إلى جانبه أدويته وكراسته الملونة ، أحتضن ابنتي بين ذراعي هي كل من بقي لي في هذا العالم ،هي ووالدها، عندما سمعت طرقا على الباب، اخترت التجاهل لكن الطارق كان ملحا ومع تململ ابنتي النائمة بين ذراعي قمت لأطرده، و لكن الطارق كان منصور وقد تخلى عن نظرته العدائية تجاهي مؤخرا.

منصور لم يتزوج ولم يرزق بأطفال لذلك أذكر جيدا حبه لأولادي رغم عدم تفاهمنا في معظم الأوقات إلا أنه كان يعتبرهم ابناءه وهو ما كان يزعج خالد، منصور المسكين الذي رأيته يبكي لأول مرة في حياتي عندما حمل جثمان ابني على كتفه، احتضنني بقوة مواسيا ثم اجلسني وجلس بجانبي، نظر إلى الشبح الذي أمامه ثم سألني دون مقدمات:

–ما الذي تنوي فعله؟

لا زلت على نظراتي الذاهلة الرافضة لكل ما يحدث، بالكادت إستطعت أن أنطق:

– أنت تعلم جيدا ما سأفعل، سأترك لك كل هذا واختار حياة هادئه كنت تسخر منها دوما ، حياة مع من تبقى من عائلتي

قال معاتبا:

–و أنا؟ أولست عائلتك يا بحر؟ يشهد الله كم كنت أحب أطفالك، تعلمين أنه لا أولاد لي، كانوا هم الوحيدين الأطفال في هذه العائلة، أظن أن الله لم يرد أن يرزقنا بأطفال كثر رحمة منه و خوفا على مصيرهم المجهول و هم أحفاد جابر، كرهك الدائم

لهذا المصير مقابل حبك لوالدك، إصرارك بأنك تستطيعين أن تكوني خلفا له من بعده هو ما جعلك ترضخين، أنا اليوم أحلك من كل هذا، أنا لا شيئ لدي لأخسره و لا أعلم لي عملا آخر ، و لكن أنت لا زالت إبنتك تستحق كفاحك.

قلت بإصرار:

–و زوجي!

نظر في عيني نظرة لن أنساها، لم أراها في عينيه قبلا رغم قسوته المعروفة ، شدد على حروفه قائلا:

–لم يبق لك في هذه الحياة سوى إبنتك فقط يا بحر، و طبعا سأكون ممتنا إذا أردت وجودي أنا أيضا كخال يحميك، أما عن زوجك، فقد حان الوقت لتفتحي عينيك جيدا على الحقائق و تبدأي حياة ناصعة لا تلوثها أي خيانة، فكفاك ما حصل لك يا إبنة أختي، كفاك!

شهقت عندما سمعت كلماته الأخيرة، عن أي خيانة يتحدث؟ خالد لا يفعلها!

أدرت رأسي بقوة رافضة إلا أنه أمسكني و دفعني إلى الباب هامسا بغضب:

–أنزلي إلى المخزن، و إفتحي عينيك جيدا!

*****

هل جربت أن تضطرم كل قطرة دم حمراء داخلك لهبا!

، أن تنفجر خلاياك قهرا!

أن يتوقف كل عضو داخلك عن العمل!،

أن تشل جميع أعصابك!

أن تحس و كأن جبلا ثقيلا كان ينزل بقوة على أكتافك فيهشم عضامك!

أن تتمنى فقط لو أنك كنت مفقود البصر!

لو أنك لا تمتلك عينان تريان ما أراه أنا الآن!

الرجل الذي أحب و الفتاة التي أعطف عليها يخوناننني في المخزن، في بيتي،و فوق أملاكي، أحس بساقاي رخوتان أشعر أنهما سينزلقان أرضا في أي لحظة ، أحاول التحرك بمشقة و فمي لا زال مذهولا، عيناي لا تريدان أن ترمشا و ترحماني و لثواني من هذا المنظر الأكثر بشاعة في حياتي، وضعت المفتاح الإحتياطي في جيبي و ددفعت الباب ببطء جاهدته بشق الأنفس.

عدت إلى شقتي و ما أن أغلقت الباب حتى سقطت أرضا، ما عادت ساقاي قادرتان على حملي، الشلل يسود جميع أطرافي و عيني لا زالا على إنفراجهما، أتطلع إلى الظلام من حولي تتراقص أمام عيني حياتنا معا: أول لقاء و أول قبلة، زواجنا و معركة حامية الوطيس بيني و بين منصور و أنا أتذكر جملته :<< أنت تتزوجين نكرةة>>

نعم، هو نكرة، هو لا أحد، لا أصل له و لا قيمة، خانني أنا من صنعت له حياة، من صنع له إسم و هوية بين الجميع، و من أجل من؟ من أجل عاهرة تعيش على ما أرميه لها من فتات.

من تزوجت يا بحر؟ كيف فعل بي ما فعل؟ بل كيف إستطاع أن يرمي بنفسه بين أحضان الخيانة و لا زال تراب قبر إبنه الصغير لم يجف بعد؟ أي جرذ حقير أدخلته حياتي ليعيث فيها فسادا؟

*****

خيل إلي أنني سمعت صوتا ما، مثل صرير الباب، دفعتها بخشونة و إستدرت بسرعة، لا شيئ، الباب مغلق و لم يحركه أحد، عقلي يحذرني بشدة:

أنت تلعب بالنار ياخالد!

تجاهلت نظرتها المنادية إلي و أنا أنهض من جانبها:

–هل ستذهب؟

بصوتها الذي وضعت به كل ما إستطاعت من إغواء، تجاهلتها و إرتديت ثيابي، ترى ماذا تفعل بحر الآن؟

أحسست بأصابعها تتلكأ على إستحياء كاذب فوق كتفي:

–إبقى قليلا، أرجوك!

سألتها بنفوري المعتاد إن كانت تريد شيئا، فأجابتني بأنها لا تريد سوى صحبتي. زفرت متأففا ، أصبحت متطلبة جدا في الآونة الأخيرة، تسعى بكل ما أوتيت من قوة إلى

سحبي إليها، إلى جعلي أتناسى ما يحصل في بيتي، موت إبني، زوجتي و عقلها المشؤوم، و أمنية التي تحتاجني أكثر من أي وقت مضى.

و رغما عني، و دون إرادتي، أرحب بما تعرضه بسخاء، و لا أستطيع أن أوقف نفسي، ما ينفك دماغي يذكرني بحياتي الحقيقية و تعقيداتها، لكنني أموت لنسيان ذلك، أموت لأعيش أياما لنفسي فقط.

*****

جللست على الأرض، أجمع ركبتي إلى صدري و أدرجهما بشبه إغماءة، كم أردت البكاء، كم دعوت الله أن يرحمني ببعض الدموع لعلني أستطيع أن اخفف عن نفسي و لكن لا فائدة، عيني أبت أن ترحمني ببعض القطرات، أبت أن تهيننني أكثر بأن أبكي أنا بحر إبنة جابر على جرذ حقير،

تتوالى أمام عيني سنين حياتي كشريط سينمائي قديم، منذ كنت صغيرة كنت مدللة أبي، الإبنة الوحيدة التي لم ينجب جابر غيرها من ذكر أو أنثى، كل من يريد التقرب إليه يحابيني أنا أولا، ثم أصبحت اليتيمة الصغيرة بعد وفاة أمي، دائما ما كانت تتلو على مسامعي بأننا كائنات ضعيفات و رقيقات، رقتها و ضعفها ما جعلاها تنهزم ، ما جعلاني يتيمة و لم أتعدى الثماني سنوات بعد، سرقت ثيابها اللاتي إرتدتهم آخر مرة و خبأتهم في خزانتي الصغيرة، كل ما إشتقت إلى وجودها جواري في مراهقتي أو في الأوقات التي أظطر فيها إلى مواجهة قسوة أبي و تعامله الجاف مع خليفه على حد تعبيره ألجأ إلى رائحتها العذبة و أتخيل حضنها الدافئ مخبأة إياي عن العالم أجمع،

يوم إكتشفت حبي للحقير و أنني أريد الإقتران به، وضعتهم أمامي و تخيلتها بشحمها و لحمها و حادثتها مطولا.

ثم أنا الزوجة العاشقة، و قد ظننت أن الله و أخيرا حباني برجل سيعوضني عن وحدتي، سأبني معه عائلتي، التي سأعوض نفسي من خلالها عن الحب و الحنان الذين فقدتهما منذ موت أمي، رجل يحبني لأنني بحر ليس لأنني صاحبة النفوذ ووريثة رجل العصابة الأشهر.

كم كنت غبية، ضربت وجنتي بقوة، كيف تغافلت عن حقارته، عن طمعه و جشعه و جحوده، أين كنت أنا عندما كان يمرغ كرامتي في التراب، ترى كم مرة ضحكا على غبائي ؟ كم مرة تهامزا أمامي؟ كم مرة أفقدني ذاتي و إعتزازي و هو يرمي بنفسه بين أحضان العاهرة التي فتحت لها بيتي؟

منحتها حمايتي و أسكنتها تحت سقفي، خدشت وجههي بأضافري عدة مرات و أنا أشهق صارخة: غبية، غبية، غبيييية!

*****

كانت الشقة صامتة، مظلمة، لا شك أن بحر نائمة مع أمنية، لم أستطع المغادرة، بقيت معها حتى ساعات الفجر الأولى ثم تسللت صاعدا إلى شقتي، دخلت إلى غرفة إبنتي ظانا بأنها لا شك تنام مع أمها إلا أنني وجدتها وحيدة، قبلتها متشممما رائحتها الطفولية ثو ذهبت إلى غرفتنا، أيضا لا وجود لها، أين ذهبت؟

فزعت و أنا أبحث عنها في الشقة كالمجنون، أتمنى فقط ألا تكون قد أصابت نفسها بمكروه، مجنونة يا بحر! كيف تتركين أمنية وحدها؟ ألم يربيك ما حصل لسيف؟

بينما كنت أعاني من تراقص ا لظنون السوداء داخل عقلي، سمعت فتح باب الشقة و رأيت وجهها الذابل يدخل؟

–أين كنت؟

قفزت أتشبث بذراعها غاضبا، كانت واهنة، ضعيفة، كسرها موت إبنها، تركها أم ثكلى لا حول لها و لا قوة، و لكن عينيها!!

الموج فيهما قد تكسر إلى شذرات صغيرة حادة قاسية، إنكسار لم أره فيهما قبلا و كأن الجحيم قد إندلع داخل حدقتيها فجأة ، و كأن الموت لم يسرق إبنها فقط، بل إمتد كذلك ليسطو على نظراتها الجميلة محولا إياها إلى لهيب أزرق بشع و مخيف.

*****

في الصباح أفقت و حضرت أغرض أمنية، متجاهلة إياه تماما، الحقير أيضا لم يحاول محادثتي، تنضح نظراته بالتساؤل دون أن يجرؤ على طرحه، أخبرني بمغادرته إلى العمل و تجاهلته تماما، راقبته سرا من الشرفة فوجدته يستقل سيارته، لتعش آخر أنفاس الحياة يا خالد، فوقتك لم يحن بعد!

أوصيت الخادمة الجديدة ألا تغفل على إبنتي ثم نزلت عازمة على إتمام أولى خطوات إنتقامي عل غليلي يشفى.

طرقت الباب و فتحته لي، بيبدو أنني أيقظتها من النوم فليلتها كانت حافلة، الحقيرة! إبتسمت في وجههي و رحبت بي بحفاوة، نظرت إلى وكرها بغموض، هذا المكان المظلم، القبر الذي شهد لمرات أجهل عددها رقصهما الخائن فوق أشلائي، نظرت إليها شزرا و سألتها فجأة:

-كم مرة؟

حيرتها فسرت أنها لم تفهم بعد السؤال فأعدته على مسامعها، ببطء شديد مشددة على كل حرف:

-كم مرة فعلتماها؟ كم مرة قمتما بخيانتي في بيتي؟؟

شهقت برعب و هي تتراجع إلى الخلف، لكن يدي التي إمتدت بسرعة تجذب خصلاتها بقوة منعتها من الهرب و أنا أضيف صارخة:

-كيف؟ أيها الأوغاد! كيف تجرؤين على خيانتي بعد كل ما قدمته لك؟ كيف تجرؤين على فعل ذلك؟ لقد وثقت بك، جعلتك تقيمين تحت سقف بيتي، تأكلين و تلبسين و تعيشين من مالي، من صدقاتي التي أغرقتك بها، و بعد كل هذا تخونيني و بأسوء طريقة؟

مع زوجي أيتها السافلة!

تعضين اليد التي إمتدت إليك!

تطعنيني في ظهري؟

إنفجرت دموع الصدمة من عيناها و سكن الرعب ملامحها، لكنها لم تجرؤ على القبول أو الرفض، نظرة الندم وشت بأن ما أتهمها به حقيقة.

دفعتها أرضا بكل قوتي ثم إنكبت يداي تظربانها على وجهها، ضربتها، رقصت أضافري الحادة على بشرة وجهها مشوهة إياها و سحبت خصلاتها بين أصابعي سحبا إلى أن أغمي عليها من الألم، لو أنني بقيت أقطع جسدها الحقير إلى ذرات متناهية الصغر أياما و ليالي لا أظن بأنني يمكن أن ارض.

دلف رجالي إلى الداخل بسرعة، حاملين جسدها الملوث الغائب عن الوعي، سألني كبيرهم:

–ماذا نفعل بها؟

أمرتهم بقسوة:

–أدفنوها!

قال من كان يحملها:

–لكنها لا زالت تتنفس!!

نظرت إليه بقوة هامسة بفحيح:

–أدفنوها حية!

*****

عيناها المخيفة، يداي متشبثتان بالمقود و لكنني عاجز عن رؤية الطريق أمامي، تتراقص عيني الجثة أمام بصري.

في المعرض سجنت نفسي بين أطنان من الأوراق و الوثائق، حاولت بشتى السبل أن أنسى منظرها القاسي و المرعب، ترى هل علمت؟

إتسعت عيناي في رعب، و لكن من أين ستعلم؟

هي فقط لا زالت متأثرة بموت سيف، لا زالت المرأة التي حملت بين يديها جثة صغيرها الهامدة، هذا فقط ما يسيطر عليها .

في المساء، غادرت العمل، قبل أن أصعد إلى سيارتي تلبستني رغبة ملحة في النظر إلى السماء، القمر مكتمل هذه الليلة، لم يكن هو ما جذب إنتباهي، بل وجه إبني الصغير من كان يبتسم لي في السماء ملوحا لي بأصابعه الصغيرة، ترى هل يسامحني؟ أطالع وجهه البريء المبتسم الذي يظهر لي من القمر، لم أكن معه في مرضه، ما أن علمت ذلك حتى تراجعت رغما عني، لا أعلم لما خفت أو جبنت، تقوقعت على نفسي كارها كوني أب لإبن مريض، فرحت أبحث عن السلوى لدى أي أحد، ووجدتها بين أحضان الخيانة، عزائي في ذلك أن أمه السبب، عملها اللعين ما دمر حياتنا.

مسحت دمعة يتيمة لا أعلم متى إستشعرت ملوحتها على شفتي، تنهدت تنهيدة حزينة و إستدرت لأفتح باب السيارة قبل أن أحس بضربة عنيفة على رأسي فقدت على إثرها الإحساس بأي شيئ على الإطلاق.

*****

وصلت إلى المكان المتفق عليه، مخزن قديم لا يدري عنه منصور شيئا، سر من الأسرار التي إئتمنها علي جابر قبل وفاته، عقار من مجموع العقارات التي كتبها بإسمي و أوصاني ألا أبوح بها لأي أحد، أخبرني أنه إذا ما جار علي الزمن أجد حجرا أتكئ عليه لن يستطيع أحد أن يطردني من جواره، بحثت عن الكتف و لكنني لم أجد، قد جار علي الزمن يا جابر و لم أجد سوى أحجارك ملاذا!.

الرجال كانوا غريبين، لم أرد أن أؤتمن رجال خالي فخالد يعرفهم جميعا، الصدمة على وجهه حين يراني لن تقدر بثمن.

دخلت إلى المخزن، ثم إتجهت إلى الركن الذي رموه به، وجدته أفاق من الإغماءة منذ زمن، على عينيه عصابة و من الجلي أنه مرهق من مصارعة الحبل الذي كبلوه به، يتململ بعنف في مكانه دون أن يتمكن من فك أسره.

و أنا من يفك أسري يا خالد؟ من يخلصني من صرخة الخذلان التي تنشب مخالبها في حلقي دون أي أمل في النجاة، أقف على منبر للموتى أصرخ بقوة و لا أجد أحدا من الأحياء يسمعني!

أشرت بصمت إلى الرجال شاكرة إياهم و أخبرتهم بصمت أن المهمة إنتهت، بدؤوا بالتسلسل إلى الخارج الواحد تلو الآخر و بقيت أنا محدقة إلى الجسد المرمي أرضا أمامي، تضرج وجهه بالدماء من أثر الضربة التي تلقاها على رأسه، إقتربت منه ثم فككت العصابة.

*****

نجحت في فتح عيني أخيرا بعد عدة محاولات، الظلام سيئ عندما يرافقه الرعب، الرعب من مصير مجهول عندما تتعثر في طريقك بعدو مجهول، العدو الذي سولت له نفسه خطفي و رميي في مكان نائي، ترى من يكون؟

لا شك أنه أحد منافسي بحر في المهنة الشريفة، ربما كان يريد إنهاء تحطيمها و أن يستأثر هو بالقيادة، شتمت في سري عندما أحسست بإقتراب شخص ما بدأ في فك العصابة، لما أحس و كأن رائحته مألوفة؟

ما أن فتحت عيني على مصراعيها، حتى هممت أن ألقي شتيمة بذيئة على مسمع هذا الهمجي، قبل أن أستوعب بصدمة أن هذا الهمجي لم يكن سوى زوجتي !!!

الضربة التي تلقاها رأسي لمسة خفيفة أمام الجبل الجليدي الذي صدم رأسي بقوة زلزال عنيف ، إقشعر جسدي و وقف كل عصب فيه عن العمل غير مصدقا:

-بحر!!!!

كانت جامدة، نفس القسوة التي فارقتها بها صباحا و لكنها الآن أكثر رعبا، إبتعدت ببطء لتجلس بإرهاق على أحد الصناديق الملقاة بإهمال.

سكوتها اللعين عمل شدا و جذبا في أعصابي فصرخت بها:

-بحر، أيتها المجنونة! ماذا فعلت؟

-بل أنت المجنون ياخالد!

تسللت الحروف بصوت ميت بين أسنانها و هي تضيف:

-كيف فعلتها؟

إنها تعلم، اللعنة! لكنني لم أجرؤ على الإعتراف، الجبن سيد المواقف و في موقفي إخترت الإنكار:

-ماذا تقصدين؟ ماذا فعل...

-أيها اللعين! لقد خنتني، و في عقر داري!

توسلت إليها:

-بحرحبيبتي، تعلمين عشقي الجارف لك!

عادت لصمتها اللعين من جديد، نظرت إلي نظرة مجنونة:

-أتعلم من أين أتى جابر ياخالد؟

نظرت إليها مذهولا، ماذا تقصد؟

أباها لا أحد يعلم أصله، الجميع يعلم فقط أنه فتى نكرة أتى من مكان مجهول ليستعمر عالم الإجرام، لم تفتح يوما موضوعا بهذه الحساسية، دوما ما تجاهلنا الحديث عن عائلتينا.

–أبي كان فتى صغيرا حالما، يعيش بسعادة مع والديه، قبل أن تكتشف جدتي فجأة أن البيت الذي حفرت أصابعها الصخر لتبنيه كان أساسه هشا رخوا و ربما كان لا أساس له من الأساس، فزوجها كان يخونها مع جارتها التي إعتبرتها صديقة، و التي دوما تفضلت عليها ، أترى التاريخ يعيد نفسه ؟

لا أزال على ذهولي صامتا، شلالات العرق تتصبب على وجهي و هي لا زالت غائبة تكمل:

–الجارة المسكينة كانت تأتي إلى البيت ليس طلبا لما ينقصها بل لنصب شباكها على الزوج، الذي مارس معها الرذيلة في كل مكان، حتى في بيته في غياب زوجته، و فوق فراشها!

جدتي المسكينة، أنا وحدي من أعلم كم الإهانة التي شعرت بها جدتي المسكينة جراء أفعال جدي الحقير!

هذه لم تكن بحر، كانت أحدا آخر، مهزومة و مبعثرة، ضحكت بتصابي و هي تضيف:

–لم تكن مسكينة تماما، فقد تجاهلت الأمر عن قصد قبل أن تتصيدهما معا و قبل أن يكتشفا وجودها كان البيت قد إحترق بهم جميعا.

*****

فتح عينيه على مصراعيهما، الرعب في ملامحه غير قابل للوصف:

–بحر، لا تلقي بنفسك إلى التهلكة، لا زال هناك أمنية، أنا حقير و لكن أنت ...

– أنا طعنت في ظهري!

خانتني شهقة و أنا أواصل:

–أنا منحتك كل ما أملك، تزوجت رغما عن أنف الجميع، أحببتك بكل جوارحي و ظننت بأنك ستنقذني من كل ما أجبرت على عيشه.

أتعلم؟ عندما أنجبت أطفالي خيل إلي بأن العالم أصبح في يدي، أنا امرأة القوة كما علمني أبي بعثرتني أنت بنظرة يا خالد!

أحسست دوما بأنني لا أستحقك، سعيت جاهدة إلى تدليلك، صنعت لك حياة حرصت على أن تجذبك دوما إلي حتى لا تستطيع الإبتعاد عني

لم أكن أعلم بأن المال الذي أغرقتك به جعلك تنجذب إلى أخرى غيري.

نظر إلي بندم قائلا:

–كنت أبحث عن حياة طبيعية يا بحر.

صرخت ذاهلة:

–أولم أمنحك ما أفضل منها!!!

إعترض صارخا:

–ماهو الأفضل منها؟ أين الطبيعي في حياتنا؟ أنام و أستيقظ على خوفي من حصول شيئ! مكبل دوما و أطفالي بسلاسل ذنبك يا بحر! أعيش كل ثانية رعبا من أن يصيبني شيئ جراء عملك اللعين، كرهت الجحيم الذي أجبرتني على عيشه برفقتك!

كل هذا الحقد في صدره؟ عملي اللعين ما صنع له حياة يهابه لأجلها الجميع بعد أن كان مجرد خانع!

–و لكنك لم ترفض! لم ترفض يوما الجحيم الذي أجبرت على عيشه معي، بل بالعكس، كنت تأخذ الأموال راضيا، متعودا على الحياة الغنية، إنتظرتك لتعيد على مسامعي إقتراحك لي بالتوقف و لكنك لم تفعلها، صدقني كنت قبلت بفرح، أراك كل يوم متخاذلا ، يديك تمتدان دون تردد إلى ما أتركه لك من مال، فأيقنت بحزن أنك تعودت

، لقد كنت معك امرأة رغم جميع زلاتي يا خالد و لكنك عجزت على أن تكون رجلا رغم شدة طهارتك.

كنت مغيبة، أناظره بقهر، أنا المرأة التي عشقت خائنا، أنا الأم الثكلى التي إكتشفت بين ليلة و ضحاها أنها فقدت الإبن و الزوج معا!

سؤاله الأخير أيقظ شياطيني:

–أين دنيا؟

أجبته ساخرة بمرارة:

–ربما تكون فارقت الحياة الآن!

ثم أضفت بنشوى سوداء:

–لا أعلم تحديدا كم يحتاج المرء من الوقت ليفقد أنفاسه الحية تحت التراب!

فتح عيناه فزعا و قد أيقن مقصدي جيدا، ما شجعني على الإضافة بشماتة:

–كم يستغرق الإنسان ليموت عندما يدفن حيا ياخالد؟؟

صرخ برعب:

–بحر أيتها المجنونة، ماذا فعلت؟

فرغت جعبتي من الكلام و أحسست بأن نطقي لحرف واحد يعادل تكبيل عنقي بسلاسل صدأة، إستقمت و هممت بالخروج تاركة إياه قبل أن يهمس لي بفحيح:

–أتعلمين يا بحر؟ أنت امرأة سوداء لا مثيل لسوادها!

إستدرت إليه للمرة الأخيرة، ثبت عيني على وجهه بكل ما يندلع في صدري من خذلان و قهر

و جبروت جابر يتراقص بداخلي:

–أنا لست امرأة سوداء، أنا الظلام بعينه!

*****

تركته يصرخ في الداخل، منتشية بجنون من صراخه المتقطع ، وجدت البرميل الذي تركه لي الشباب قبل أن يرحلوا، أمسكته و صببته على كامل جدران المخزن ، ترى ماذا أحست جدتي؟ هل أحست النيران تلتهم أحشاءها من الداخل كما أحس الآن؟

هذه الحرقة و هذا اللهب؟

لا شيئ يعادل الخيانة مرارة، لا شيئ.

وقفت أمام المخزن و لا زالت صرخاته المتقطعة تصلني

أنا أنثى مهزومة من الماضي و الحاضر

بعثرتني أقدار خائنة، مستغلة و مستبيحة،

سقطت ناطحات سحاب الحب مهشمة إياي

الهزيمة أنثى و النصر ذكر

الإستباحة أنثى و المجد للذكر

سأطوع النصر و المجد لي

و سأتعلم بجهد كيف أكون كيدا

أنا لست أبدا المحطة، أنا الطريق الذي يمهد مساره بيديه،

و لا شيئ يفوقه حرية، و قبل أن أرحل، نظرت نظرة أخيرة إلى الظلام المنتشر أمامي، خيل إلي أنني أسمعه ينتحب وسط صرخاته، رميت عود الثقاب المشتعل، و غادرت.

*****

قبل الفجر بقليل، شوهدت امرأة ملثمة تحمل جسدا صغيرا بين ذراعيها، تركض بكل ما إستطاعته ساقيها الواهنة من قوة قبل أن تحتل زورقا صغيرا كان في إنتظارها.

إبتعدت القطعة الخشبية عن اليابسة تتجه نحو مصير مجهول، حاول البحار فتح حديث مع زبونته الجديدة الصامتة، عله يبدد الملل، فالرحلة طويلة!

–ما اسمك سيدتي.

غامت عيناها للحظات قبل أن تجيبه بغموض:

- **ما نحتاجه جميعا، أمل!**

*****

"خديجة"

زنزانة معتمة، قبيحة داكنة الجدران، فقط بعض الشخبطات السابقة لمن سبقها الواتي خطفهن عالم الخطايا بإغواء كاذب مزيف، بين أرجاء هذه الظلمة تقبع مجموعة من النسوة الخارجات عن القانون و اللواتي لا تعرف عددهن تحديدا، كل تسبح في ملكوت مختلف :التعض تتسامر و تضحك و تلقي النكات و كأنها في ملكيتها المترفة و الخاصة و ليس في زنزانة ضيقة بالكاد تتسع لنصف أجسادهن، البعض يتطلع إلى البعض في إستكشاف، و البعض الآخر مثلها تماما ألقت كل واحدة منهن جسدها في ركن منفرد ، كل تحاول لم شتات نفسها و داخلها يغلي بين ندم الخطيئة و قهر المظلومين.

أما هي فلا تعلم أي منهن تحديدا: عاصية أم ضحية، لا تستطيع تذكر شيئ سوى إستيقاظها بمحل عملها مرمية كقطعة بالية إلى جانب جثة رئيسها المطعونة بسبع طعنات قاتلة!

عيناها المذهولتان تتطلعان إلى الظلام النسبي أمامها، و داخلها يغلي، يتراقص السؤال بسخرية أمام عينيها : من فعلها؟

عندما عادت إلى المنزل، وجدت سلمى و زوجها قد إستغرقا في النوم، العشاء فوق المائدة منتظرا إياها كالعادة، تناولت لقيمات قليلة ثم صعدت إلى غرفتها و رمت نفسها بين أغطية سريرها البسيط من التعب و لم تحس بشيئ بعدها أبدا.

عند إستيقاظها بعد سويعات قليلة وجدت نفسها بعيدة عن غرفتها الآمنة، ملقاة على الأرض في محل عملها، تفصلها أمتار قليلة عن جثة مخدومها.

نهضت مسرعة تتطلع حولها بإستغراب مرعب قبل أن تقفز ناحية السيد رشدي تنزع السكينة التي تركها القاتل مغروسة مكان قلبه تماما، محاولة إنقاذه بنصف إغماءة، و لكن لا فائدة، فقد مات و منذ وقت طويل.

دفعها الحارس بغلظة إلى غرفة مدير السجن، جسدها الواهن يؤلمها بشدة جراء نومها على الأرض الباردة.

دخلت تعانق عينيها الأرض بخزي فهي و رغم سنواتها الثلاثين إلا أنها دوما ما تحاشت دخول مثل هذه الأماكن، تعيش حياتها بإعتدال بسيط و تبتعد قدر الإمكان عن المشاكل، الروتين رفيقها الوفي، تستيقظ كل يوم باكرا لتعمل بائعة بسيطة في محل لبيع الأثاث القديم، منذ أكثر من خمسة عشرة سنة، السيد رشدي رجل شهم، خصص لها مرتبا محترما يقيها و شقيقتها الكفاف.

ناداها المدير بغلظة:

-أنت تعالي إلى هنا!

إقتربت من مكتبه و لا زالت عيناها تعانق الأرض بقوة ترفض الإنسلاخ عنها:

-لما فعلت ذلك؟

صدرت منها شهقة قوية و هي تتطلع إلى المدير بصدمة، أهي المتهمة؟

-صدقني سيدي، لم أفعلها!

نطقتها بتوسل حزين لم ينجح في التأثير على المدير الذي إستنكر بقوة:

-كيف لم تفعلي؟ كيف تفسرين إذن وجودك مع القتيل في ساعة متأخرة في محله؟

كانت تهلوس دون وعي:

–أنا أعمل معه منذ مدة طويلة، تربطنا علاقة طيبة، لما سأقتله؟

صرخ بها بقوة:

–توقفي عن هذيانك! هذا ما أنتظر إجابته منك!

طرقات منتظمة على الباب أعقبها دخول الحارس محييا رئيسه بروتينية:

–محامي الجانية خارجا سيدي.

جلست مع المحامي الذي وكلته لها أختها المسكينة، سلمى ما هذه المصيبة التي وقعت على رؤوسنا، شقيقتها تنتظر مولودا جديدا و زوجها المسكين لن يستطيع تحمل نفقاته وحيدا.

نظر إليها المحامي بإشفاق ثم قال بمهنية:

–خديجة أخبريني بما حصل، و إياك أن تخفي عني شيئا.

كلها كان يتحدث، عيناها و شفتيها و حكات يديها الخرقاء، تحاول إيصال براءتها بكل ما إستطاعت من جهد، ودعت السيد رشدي مساء كالمعتاد بعد محاسبته،

عادت إلى منزلها و نامت قبل أن تستيقظ في المحل بجانب جثته، أقسمت بأغلظ الإيمان بأنها لا تفعلها، تعمل لديه منذ مدة طويلة و هو بمثابة المرؤوس الطيب لم يأكل مليما واحدا من مالها، لم يسئ معاملتها يوما بل دوما إعتبرها بمثابة إبنة لم ينجبها، منذ كانت فتاة صغيرة لم تتعدى سنواتها الخمس عشرة بعد جاءت إليه تطلب عملا على إستحياء و هو وفره لها بل و أحسن إليها دوما،

لا يمكن أبدا أن تكافئه بهكذا طريقة شنيعة،

لا يمكن!

لا زال المحامي على نظرته المشفقة قبل أن يلقي بقنبلته المدوية:

–الجريمة ليست القتل و فقط، القتيل يملك مبلغا هاما من المال في المحل إضافة إلى مجوهرات زوجته، لذا يرجح بأن القاتل سرق كل ذلك و هرب، مما يعني أنها جريمة مشتركة بينك و بين آخر، قد طمع في الإستحواذ على المسروق فخانك و هرب،

هكذا تقول الأدلة!

*****

عادت إلى الزنزانة تمشي بوهن و ضعف تدفعها يدا الحارس بغلظة، طوال سني حياتها لم تواجه مثل هذه المهانة أبدا.

يعرفها الجميع دوما بهدوءها و أمانتها، رغما عن كل الآلام التي عاشتها و المسؤوليات التي ألقيت على عاتقها رغم صغر سنها إلا أنها لم تحد عن الطريق يوما،حتى لقب مطلقة لم يؤثر في سمعتها قيد أنملة، لم تأكل يوما مليما حراما، تعمل بعرق جبينها منذ صغرها، هذه السمعة الطيبة ما دفعت السيد رشدي إلى إئتمانها على شقا عمره على حد قوله و على مجوهرات زوجته لأنه لا يحب التعامل مع البنوك، خاف أن يسرقه منه إبن أخيه الذي يعيش معه منذ صغره متبنيا إياه جراء عجزه هو و زوجته عن الإنجاب، إبن أخيه الذي حاول مرة سرقته ،

يومها أحضر كل ماله مانحا إياه إليها و أمرها أن تحاول إخفاءهم في مكان ما داخل المحل لأنه مع الأسف البيت لم يعد آمنا و لا يمكنه طرد إبنه منه لأنه هو من رباه، و لكن لعن الله القمار.

خبأتهم حريصة و بشدة على الحفاظ عليهم بل و مضاعفتهم إن أمكن، سعيدة لا تنكر لهذه الثقة التي منحها إياها السيد رشدي و الذي لا ينفك يخجلها بتقديره لأخلاقها الطيبة، إذا ما كان هناك فائض من المال تضيفهم إلى المال القديم، لا أحد يعلم هذه الحقيقة سواها هي و السيد رشدي، لا أحد آخر.

و أخيرا زارتها سلمى بعد أن نقدت الحارس مبلغا محترما من المال، تطلعت بحزن إلى السجن الذي إحتوى جسد أختها المسكينة العاقلة و المهذبة التي عانقتها طويلا، أختها التي دوما ما حسدنها قريناتها عليها، أختها التي لم يتبق لها غيرها، أختها التي

لم يدفعها شيئ إلى الحرب مع هذه الحياة القاسية و الكفاح ببسالة ضد الفقر و الجوع سوى شقيقة صغيرة تركتها أمها قبل وفاتها.

جلست بجانبها ممسكة يديها بقوة، حامل في شهرها الأخير، تتطلع إليها في إشتياق حزين فهما لم تبتعدا يوما عن بعضهما البعض حتى الأقارب لا علاقة لهما بهم، عيناها ذابلة هي الأخرى منهكة من البكاء:

-خديجة، ما هذا الكابوس!!

تطلعت إليها ببؤس العالم هي الأخرى مجيبة:

-لا أعلم، لا أحد يعلم آخره!

إنتحبت أختها بخفوت:

-و لكن كيف؟ كيف يمكنهم أن يفكروا بك كمجرمة؟ ألا يعلمون بأنك تعملين لدى المرحوم منذ صغرك، و لطالما جمعتك به علاقة طيبة؟

المرحوم، ضربتها الكلمة في مقتل، إذا فقد مات السيد رشدي، مات ذلك الرجل الطيب، الأب الثاني لها، لم يعد له وجود في العالم القاسي الذي تعيشه، و الأسوء أنها متهمة بقتله!

الثقل يجثم على صدرها، تختنق كل دقيقة أكثر من سابقتها في هذا المكان الموبوء بالعفن و هي ترد:

-الموضوع ليس القتل فحسب، أتتذكرين ذلك الموضوع الذي إئتمنتك عليه؟

تطلعت إليها سلمى بتركيز:

-ما به؟

قالت مضيقة عينيها بحزم:

–لا أحد آخر يعلم يا سلمى، أليس كذلك؟

شددت سلمى على يديها و هي تقسم:

–أقسم لك، سالم نفسه لا يعلم، كيف لي أن أؤتمن أحدا على سر خطير كهذا! خاصة و أن المال ليس قليلا، ثم كما تعلمين أنا لا أغادر البيت إلا لماما، لا أقابل أحدا و لا أحد يقابلني.

عانقتها بمحبة خالصة:

–أنا متأكدة من صدقك حبيبتي، فقط سأموت لأعلم من زج بي في هذه المصيبة، كل دقيقة تمر و أنا مكبلة في هذا القبر أحس بها تقارب عقودا من الزمان.

*****

ترى كيف حال السيدة هاجر؟

كانت تفكر مستلقية على الجدار خلفها ، ترى كيف حال السيدة المسنة التي لا عائل لها سوى زوجها الذي فارق الحياة، لا شك أن المحل مغلقا والمال قد اختفى إذن من أين تعيش؟

قال الله "الطيبون للطيبات "، الآية التي تتجلي بوضوح على زيجتهما، هاجر ورشدي يؤازران بعضهما رغم كل شيء، عدم انجابهما أطفالا لم يؤثر على علاقتهما أبدا، بل بالعكس كانا دائما شاكرين حامدين لطف الله، ورغم ان العقم كان من السيدة هاجر إلا أن زوجها لم يحسسها يوما بذلك، بل كان يحسن إليها و يحبها بجنون مخبرا إياها إن دزينة من الصغار لا تساوي صباحا جميلا يقضيه برفقتها يحضران الإفطار

مشاكسا إياها كالعادة بأفعاله الطفولية، لا أحد غيرها بقادرة على تحمل رشدي الصغير و هي دوما ما كانت تجيبه بضحكات رائقة، اتخذا من إبن أخ السيد رشدي ولدا ربياه و ودللاه كثيرا، وغفلا عن الحزم والشدة في تربيته إلى أن و في غفلة منهما سلك طريقا سيئا، تعلم الخمر والقمار ما جعله يحاول سرقتهما مرة من قبل،

كم تحب خديجة السيدة هاجر فهي دوما تحسن إليها و تطعمها من مؤكولاتها الطيبة بل و تناديها إبنتي في أغلب الأوقات و كأنها تعوض أمومتها من خلالها، وحتى عند اتخاذها قرارا بالطلاق رغم صغر سنها ساندتها بحكمتها المعهودة مخبرة إياها إن الرجل الذي لا يعيل بيته حتما غيابه أفضل بكثير من وجوده.

*****

دخلت إلى الزنزانة تشهق بقهر تحت أنظار بقية النسوة ما بين مشفقة ومستنكرة هذا الإزعاج، الكدمة الزرقاء حاوطت عينها اليسرى بمنظر منفر إلى جانب أثار حمراء لأصابع غليظة التفت حول عنقها الرقيقة ما يفضح تعرضها إلى أنتهاك فوق احتمالها، فبعد أن وقع استدعاءها مرة أخرى أمام مدير السجن لم تجده بمفرده بل كان معه آخر شخص توقعت رؤيته : الإبن المتبنى للمرحوم ياسين و الذي طلب كلمة على انفراد .

تضرعت في سرها محضرة خطابها الذي ستتتلوه على مسامعه ,ستتوسل إليه وتخبره أنها لا تفعل مثل هذه الفعل الشنيعة، أن عمه وزوجته من أحسن ما عرفت في حياتها ، ان زوجته المحبة عوضتها حنان الأم المفقود، أن العم رشذي كان بمثابة والد لها، أنها لم تطمع يوما في مليم حرام من ماله أو من غيره،

ولكن كل ذلك لم يحدث لم تستطع قول حرف واحدا ناهيك عن كلمة واحدة إذ ما أن أقفل مدير السجن الباب وراه حتى تلقت صفعة قاسية من حيث لا تعلم إصابت عينها اليسرى بالم لا يحتمل إلى جانب أصابع غليظة إلتفت بقوة أفعى سامة حول عنقها تدفعها إلى الجدارخلفها بقسوة وبصوت صارخ يصم أذنيها:

– ايتها الساقطه بفضل جشعك الخبيث قتل أبي بأبشع طريقة توفيت على أثره أمي بنوبة قلبية قاتلة!

الضرب الذي تعرضت له لا يؤلمها بقدر الحقيقة المرة التي صفعها بها على وجهها و ما أبشع الحقائق المرة!

بين ليلة و ضحاها فقدت شخصين كانا يمثلان الأمان لها، الحضن الدافئ الذي لطالما حماها من صفعات الحياة ، مات والدها و تركها فتاة صغيرة جدا ,تزوجت أمها سريعا خوفا من الناس، أرملة شابة و طفلة صغيرة، مادة خام لولادة الأقاويل التي تنهش لحم الأرملة الوحيدة دون رحمة.

زوج أمها لم يكن سيئا، و أيضا لم يكن جيدا، كان غريبا في بيتهم، لم يسئ إليها و أيضا لم يحسن إليها و لو مرة واحدة، لا تعلم شيئا عن العلاقة بينه و بين والدتها و لكنها سمعتها يوما تصفه بالشبح الممل، الصامت المتباعد على الدوام، موجود و غائب في نفس الوقت، أنجبت أمها شقيقة صغرى ، أحبتها كثيرا و الأخرى بادلتها الحب أيضا.

أيامها هنا متشابهة، جميعها تمر في هذه الزنزانة المظلمة، البارحة كان لها مقابلة مع المحامي، أخبرها آسفا بأن موقفها في غاية الصعوبة، إمساكها بالسكينة المغروسة في جسد المجني عليه، جعل بصماتها تنطبع عليها، لا وجود لبصمات أحد آخر، و كأن الصدمات ترفض أن تنتهي، هناك رسالة وقع إرسالها من هاتفها إلى هاتف الضحية تطلب مقابلته فجرا في محله.

صعقت، لازال داخلها يرتجف قهرا و هي تصرخ باكية:

–كيف؟ صدقني أنا لا فعلها، العم رشدي يعشق زوجته بجنون، لم يسبق أن ربطت بيننا أي علاقة خارجة ! صدق...

–أصدقك يا خديجة، بقطع النضر عن صفتي كمحام في قضيتك، إلا أنني بحكم خبرتي الطريلة أميز جيدا بين الظالم و المظلوم ، أنا متأكد من براءتك، و لكن الأدلة جميعها ضدك، السكينة و الآن الرسالة.

كنت تنتحب مرددة دون وعي:

–أنا بريئة، بريئة!

*****

دخلت إلى مكتب مدير السجن، بعد أن تم إستدعائها من قبله، خفت نظرته العدائية تجاهها عندما أخبرها:

–لقد تحدد معاد جلستك.

لا زالت صامتة، عيناها الواسعتان مذهولتان من تسارع الأحداث، لا زالت لا تصدق ما حدث، تنتظر بفراغ صبر إستيقاظها من هذا الكابوس البشع، تنتظر أن يلقي أحد ما دلوا باردا على رأسها علها تتخلص من هذا الجنون!

خديجة، الفتاة الهادئة الصامتة على الدوام، المتفانية في رعاية أختها الصغرى، هي اللامرئية، تنتمي إلى هؤلاء الأشخاص الذين يكادون يعانقون الأرض في سيرهم ، تجد نفسها بين ليلة و ضحاها قاتلة و سارقة و سيئة السمعة، منبوذة في دهاليز سجن لا يبدو خلاصها منه قريبا.

تطلع إليها مدير السجن بشفقة سائلا بخفوت:

–لما فعلتي ذلك بنفسك ذلك يا إبنتي؟ ألا تعلمين ما هي نهاية الإجرام، السجن أسوء من الجحيم نفسه، الله يعينك على تحمله!

دموعها تتسابق على وجنتيها، كانت لوحة مجسدة للبؤس بكل ألوانه القاتمة الحزينة، رسمتها يدا رسام بارع أراد أن يصور مدى قسوة بؤس المظلوم.

-الجميع في البلدة يؤكد على أنك أنت القاتلة و لا أحد سواك، يقولون بأنك امرأة مطلقة و تعملين مع المقتول منذ وقت طويل، البعض يرجح أنه سبب طلاقك.

إعترضت بقوة:

-السيد رشدي معروف بأخلاقه و سمعته الطيبة، لم يسبق أن لمح لي حتى بهكذا شيئ مشين.

-إذن المال هو السبب!

إعتراضها كان حاسما:

-المال كان بحوزتي منذ البداية، منذ مدة ليست بقصيرة، لو كنت أريد الإستحواذ عليه لحصل ذلك منذ زمن.

واصل إشفاقه محدثا إياها:

-موقفك صعب جدا، كل الأدلة تشير إليك وحدك، أنت متهمة بالقتل و السرقة، و رفضك وجود شريك لك سيجعلك تحملين الوزر بمفردك، قد يصل ذلك إلى المؤبد.

و هو ما حصل بالفعل، شاهدت أختها المثقلة بالحمل تبكي بشدة بين ذراعي زوجها المسكين، الذي ركض إليها محاولا تجاوز الحراسة المحاطة بها، حاول طمئنتها قبل صعودها في سيارة السجن:

-لا تجزعي خديجة، سأسعى بكل جهدي إلى إنابة أكثر من محام لك، سأخرجك من هناك.

كلمات القاضي لا زالت ترن في أذنيها، تحبو، حرفيا، بين الجدران القاتمة، يحاوطها الحراس من كل جانب، تتذكر وقوفها أمام القاضي، المذنبة و كما قال القاتلة، جسدها يتحرك بصعوبة الثقل الشديد للظلم الذي يجلس بتشفي فوق كتفيها، يتراقص أمام عينيها مستقبلها القاتم الذي ستحتضنه جدران السجن الباردة من هنا فصاعدا، ستصبح مجرد رقم و إسم في خانة، إقامتها الجديدة أو منفاها الجديد لا فارق ماهو مأكد أنها و لآخر أيام حياتها ستبقى رهينة جدران بشعة و سقف أبشع.

من لم يذق ظلمة الزنزانات، الهواء المحمل برياح الخطيئة، الندم على الذنب الذي سيجبرك بؤسها على تجرعه في كل ثانية تمر عليك هناك ورغما عنك، الطعام الرديئ، كل لقمة أبشع من سابقتها، النوم كل ليلة فوق إبر القهر عندما تؤدي عقوبة لا تخصك، ذنب لم ترتكبه، رغما عنك ستحس بأنك لا شيئ، إسم في خانة في دفتر ملقى بإهمال بين الأرفف، لم تعد تمتلك حياة تبنيها، لا أهداف تركض لتحقيقها، تنام و تستيقظ على حقيقة واحدة: أنت موجود لأنك حي، لأنك تتنفس، ربما لو كنت في عداد الأموات لما واجهت هكذا مصيرا، لكنت بعيدا جدا عن جدران السجن القاتمة، لما كانت ستحمل جثمان حياتك إلى آخر عمرك.

المؤبد وقع تخفيفه إلى عشرين عاما، قام المحامي بكل ما إستطاع حتى وقع ذلك، لا أثر لجان آخر، الجميع صدق بأنها هي الفاعلة، سلمى أخبرتها بأن المحل قد تم إغلاقه، المجرم هرب إلى غير رجعة.

إذه هكذا هو الحال، ستدفن شبابها بين هذه الجدران، ما الفرق بين المؤبد أو العشرين سنة؟

هو نفس المصير الأسود، ستغادر عجوزا في الخمسين، تتصارع التجاعيد على وجهها الأسمر، تحكي كل منهن على أيام السجن القاسية على امرأة مظلومة، ربما لأنها طيبة، ربما لو كانت شريرة لما فكر أحد في أذيتها و نهش لحمها بالأقاويل الكاذبة، الخير جيد أحيانا و لكن الشر يمكن أن يكون جيد دوما،

ألا يقول البعض بأنه لا شيئ سوى الشر بقادر على إيصالك للقمة و بسهولة!

و مرت السنوات، من جرب جدران السجون يعلم جيدا أن الوقت لا يمر بل يحبو، تزحف ثوانيه التي تعادل عقودا طويلة من الزمان،

إنطفأت شعلة الحياة داخلها، الأيام نسخا عن بعضها البعض، الحبس لا يسمح لك بالإشتياق إلى الشمس لأنك لن تراها وقتما تشاء، أنت مجبور على عيشة واحدة من يوم دخولك إلى يوم مغادرتك، الهواء المشبع بالإذلال و الإهانة، تنوء بثقل بؤسك و لا مجال للشعور بالإرهاق، حتى الكره محرومة منه لأنها لا تعلم على من ستسلطه، تتضرع نفسها السجينة كل فجر تدعو الله أن ينور الحق.

بذرة الشك أنبتت لهيبا في صدرها، بعد ما قالته لها سلمى اليوم: ربما كان الفاعل إبنه.

و لما لا يكون، هي أكثر من يعلم أن إبن السيد رشدي منذ سنوات طويلة إنعدم الود بينه و بين الأسرة المتبناة، كثيرا ما كان رئيسها في العمل يتلو على مسامعها و كذلك زوجته معاملته القاسية لهما منذ إتخذ طريق الفساد، إذ علمه هذا الأخير من المجون ألوانا حتى لم يعد يفرق بينهم و بين الغرباء، كما أنه قد حاول السرقة مرة، ما المانع من إعادة فعلته؟

سالم رحب الفكرة لأنه يوافق زوجته على ظنونها، الجميع يعلم الصراع بين الإبن المتبنى و الأسرة، كما لا يخفى عليهم إنحرافه و سوء أخلاقه، ربما كانت له علاقة.

الصباح كان فاترا ككل بدايات الأيام داخل السجون، كان ذلك قبل أن تسمع:

–خديجة، زيارة لك.

ظنت بأنها سلمى أو سالم، فلا أحد لها غيرهما، في أكثر أحلامها جنونا لم تتخيل أن يكون الزائر صدمة حقيقية كهذه،

إبن المرحوم، ياسين!

هي قاتلة والديه كما يقول الجميع، لحيته الطويلة تجاوزت ذقنه بسنتيمترات كثيرة، ثيابه متهدلة فوق جسده النحيل، هكذا في صباح بائس وجدته في إنتظارها.

هذه أول مرة لهما على إنفراد، بعد المواجهة الأخيرة التي كاد فيها أن يقضي عليها.

صامتة، الخجل و الخزي أحاطاها من كل جانب، و لدقائق قليلة الخوف قبل أن تتأكد بأن الرغبة في الإنتقام ليست هي من أتت به هذه المرة. ياسين أضحى متأكدا أنها لم تفعلها، العلاقة التي كانت تجمعها بوالديه أفضل بمراحل من علاقته هو بهما، حتى مع همس أمه هاجر قبل أن تنتقل روحها إلى بارئها و هي تكرر:

–خديجة، لا تفعلها!

و لكنه الشك، كل الأدلة كانت تشير إليها!

علم بالصدفة أن زوج أختها الصغرى يراقبه، أخبره عندما أمسك به بأن المسكينة أخت زوجته تتعذب، لا صحة لما تعاقب لأجله، المال كان بحوزتها منذ البداية و لو أرادت إختلاسه لفعلت، رغما عنه يحس بالذنب، لو لم يحاول سرقته لما حصل كل هذا، و لكان الآن ينعم بأحضان أبويه الدافئتين يحاول رأب الصدع بينهما.

تطلع إلى هيئتها المزرية قائلا بأسى:

–أنت لا تستحقين كل هذا، بل أنا المذنب الوحيد!

، لا شك بأنك تستغربين كلامي اللامنطقي بعد آخر مقابلة بيننا، لكنني بعد أن دفنت والدي بيدي العاريتن هاتين، و بعد دفني لوالدتي التي كانت تتهجئ إسمك بحسرة قبل أن تموت تحاول إفاقتي بالحقيقة :" خديجة لا تفعلها!" عيشي بؤسا لا يمكن أن يتخيله يتيم مثلي فقد الأبوين دفعة واحدة، فتح عيني رغما عني عن علاقتك الطيبة بهما و إحسانك إليهما دوما، حبهما لك و سمعتك الطيبة يعبران بوضوح أنك لست أبدا من النوع الذي يمكن أن يرتكب هكذا جريمة بشعة،

لو لم أفعلها لما إستنجد أبي بك أو بالمحل و لما كنا هنا الآن و لما جمع القبر جسديهما معا،

"لو" يالها من كلمة قاسية!

ثم أجهش بالبكاء.

لم تدري بما تجيب أو بما تواسيه،

نظر إلى عينيها بقوة بعد هدوءه و أضاف:

–لن أكرر فشلي في حماية والدي، سأحميك بكل جهدي، سأسعى بكل جهدي لإيجاد الحيوان الذي تسبب في ذلك، سأخرجك من هنا.

فور عودتها إلى زنزانتها، إستلقت فوق سريرها، يغمرها إحساس بالراحة، السيدة هاجر لم تكرهها، ماتت و هي راضية عنها، و هي واثقة تمام الثقة أنها لا تفعل مثل هذه الأشياء المشينة.

و رغما عنها تسللت إليها ذكريات الزيارة: الغريب الذي يهتم لأمرها، دموعه أمامها و إصراره على حمايتها، هي لا تعرفه إلا من شكاوي المرحوم،

الدلال جعله رجلا لا مسؤولا رغم تجاوزه العقد الثالث من العمر، الخمر و القمار أساسيات حياته، اليوم هي رات رجلا تغيرت حياته نحو الأسوء، ماتا والداه فجأة على يد غاصب مجهول، الحيوان على حد تعبيره الذي سولت له نفسه قتل رجل بريئ لسرقة شقاء عمره و زج امرأة بسيطة على شاكلتها في السجن، ظروف مثل هذه تغير طباع الناس مهما كانت، ألم يغيرها موت أمها، ألم يحولها بين ليلة و ضحاها من فتاة مراهقة إلى المعيل الوحيد لأختها الصغرى، ألم يجعلها تنزع بكل قسوة رداء الطفولة ليجعلها تركض بين الأعمال حتى تنقذ نفسها و أختها من الجوع، خانتها دمعة حزينة، الحياة ليست دوما وردية فهاهي امرأة عرفت شظف الحياة و قسوتها حملت على عاتقها كاهل فتاة صغيرة أينما ذهبت إلى زوجة صغيرة إكتشفت أن قوام الرجولة لم يعرف لزوجها طريقا، إلى مطلقة فتية تنهشها الأقاويل من كل جانب،

ولا زالت.

الملل و الفراغ يؤججان الذكريات، البقاء بلا حراك هو ما يرغمك على إستدعاء الذكريات المنفرة، أنت عاجز على أن ترحم نفسك ببعض العمل علك تطرد ما لا تستسيغه منها، بل مرغم أنت على مواجهتها، مكبل بضعفك و قلة حيلتك رغما عنك من جهة و تعصف بك عدم قدرتك على التحرر من جهة أخرى، فلا تملك لا رفاهية التحمل أو التجاهل.

هي خديجة، فتاة ذات الواحد و عشرين ربيعا، وجدت عملا يقيها ذل الحاجة، و لكن ذلك لم يكن بمنتهى السهولة، فقد واجهت الكثير من مضايقات الرجال عازبون أو متزوجون، الجميع سال لعابهم للفريسة اليسيرة،لا رجل.و لا سند، ما دفعها و في إطار قرار متهور تقرر الزواج، تحاول البحث على من يسند ضعفها و ظنت أنها وجدته.

كان من هؤلاء الذين يهجرون مسقط رأسهم البعيد بحثا عن لقمة العيش، كان زبونا أراد أن يستنفع بإمتيازات الأثاث القديم الرخيص الثمن، وجدها و صور لها خيالها البريئ أنها وجدته.

طمع بالشابة النظرة التي تملك بيتا يقيه مصاريف الإيجار، و لا مشكلة له مع وجود الشقيقة الصغرى، لا عمل له قارا، فقط من بعض الأعمال البسيطة المتفرقة، لا مال له و بالأحرى لا شيئ له، إشفاقها عليه ظنته في خيالاتها الزهرية أنه النصيب، أخبروها أنه عاطل عن العمل و لم تهتم،

لا منزل له و سيقيم معها و لم تهتم،

جددت عش الزوجية من مالها الخاص،

تزوجت دون قطعة حلي واحدة و لم تهتم،

و بعد الزواج إسترخى بوقاحة في البيت،

كان كالعلقة لا يغادر إلا لماما و للقهوة كانت أغلب مشاويره،

تعود على اللقمة الباردة،

ظن نفسه الملك و هي جاريته ببساطة لأنه الرجل ،

لم يعد يبحث عن عمل بل وصل به الأمر إلى رفض كل ما يعرض عليه بغرور وقح،

عاش طويلا مجانا على ظهر اليتيمة الوحيدة،

صمتت طوالا إلى أن أنفجرت فجأة:" أنت الرجل!

و أجابها ببروده الوقيح: " أنت امرأة رضيت بي هكذا فلا تجادلي!

و واصلت التحمل و أملت طويلا تغييره بل و حاولت و بجهد و لكن لا أمل،

تمنت طويلا أن يتغير و أيقنت فجأة أنه لن يفعل،

لأنها ببساطة لم تتزوج رجلا.

طردته خارج منزلها بلا رجعة

و إستحقت لقب مطلقة عن جدارة و هي لم تكمل عامها الأربع و عشرين بعد،

و سجدت لله طويلا أن لا وجود لأبناء،

وواصلت حياتها بلقبها الجديد!

ترى هل يمكن أن يكون هو؟

أراد الإنتقام بقلة أصله كطبعه الحقير!

تساءلت طريلا بينها و بين نفسها

لينهرها عقلها بقوة عن هذه الظنون الساذجة،

هي قد عاشرت جبنه و ضعفه طويلا

رضي برحابة صدر أن يرمي بإحتياجاته على امرأة

عرف الأكل و النوم في كنفها فترة طويلة من الزمن

مفهوم الرجولة قاصر في عقله على الخدمة،

و ليتها كانت بيتية فحسب الأكل و المعاشرة و التنظيف

بل إمتد طمعه بما أكثر العمل و الراتب بإستحقاق حقير،

هو أجبن و أضعف من أن يفعل

هو أسوء و أحقر و أسوء من قابلت من الذكور و الأسوء أنه كان زوجها يوما،

ربما إذا ما راودته فكرة الإنتقام منها عن طردها إياه ككلب ضال فسينتقم بأساليبه الرخيصة،

لا يملك الجرأة بأن يرمي نفسه في هكذا مصيبة.

ثم إن هناك الرسالة

إلتسعت عينيها فجأة و هي تتذكر الرسالة

كيف نسيتها؟ من عساه يملك رخصة الولوج إلى هاتفها المشفر ثم خطفها و رميها بمقر عملها

رأسها سينفجر، ما هذه الأسرار!!

****

سلمى المسكينة تذبل يوما بعد يوم،

فقدت الأخت الكبرى المحبة و المراعية و الأم الثانية كما كانت تقول دوما

زارتها مؤخرا و إحتضنتها بقهر الشوق الذي يعتمر في صدرها

سألتها لما لم تجلب معها الرضيعة، فهي تموت لهفة لرؤيتها، لتعرف هل أخذت من ملامح خالتها الوحيدة و لو قليلا!

دققت النظر في وجهها الذابل، الهالات السوداء حول عينيها التي يبدو و كأنها جفت من الدموع،

ألم تعتاد غيابها بعد؟

لم يمر على أمومتها أشهر قليلة، مالذي يحدث معها؟

قالت بأسى مجيبة عن تساؤلاتها التي لم تنطقها بعد:

–لقد ماتت صغيرتي!

كيف؟ متى؟ لم تبلغ بعد الأشهر القليلة!

إنتظراها طوالا معا و تمنيا مقدمها سريعا،

هي الفتاة الصغيرة التي ستكمل أسرة أصغر

ستعلمهم الحياة البريئة بطفولتها التي ستغزو عالمهم البارد!

أخبرتها بهشاشتها الحزينة تكتم شهقتها:

–أنا نفسي لم أفهم، أرضعتها كالعادة، قبلت بشرتها الندية و أنمتها بجانبي ممسكة أصابعي بين يديها الرقيقتين تتلاعب بهما، لا أعلم متى غفوت

لأستيقظ فجأة على أصابعها الباردة، فجأة فقدت أنفاسها، بهذه البساطة، بين أحضاني الغافلة، أحضان أبيها و أمها!

عندما تكون مسجونا،

تكبل أنت بذنوب معصيتك

تصبح أراضي قلبك قاحلة

تتنفس أخطاءك الملوثة

هكذا أصبح حالها مستلقية كثيرا في مكان نومها

تتطلع إلى السقف فوقها و قد تقشر و أصبح باهتا من كل لون

عاريا لا يجد ما يستر قبحه كحياتها تماما

سلمى الصغيرة التي لازمتها يوما كضلها

منذ وجدتا أنفسهما وحيدتين حملت هي المسؤولية على عاتقها

تركض دون توقف بين عمل و آخر

تحرش و ظلم و سوء معاملة

طمع تام الصراحة لكيان فتاة صغيرة ترفض مغادرة أعتاب الطفولة

و لأجل أختها الصغرى رضت بالتعب بالقهر

تجاهلت العيون الجشعة و رغبتها البذيئة

و رفضت بحزم أن تعيش سلمى مصيرا مثلها

سعت بكل قوتها إلى صنع حياة سعيدة و متكاملة

و نشأت سلمى بسببها في رغد

نسبيا نعم و لكنه لا يقارن حتى بالشظف الذي كانت تعيشه

و غفلت عن أن ذلك ما جعلها هشة ضعيفة الشخصية

عدم تحملها للمسؤولية و حبها السريع للجار الوسيم الشاب

رغم فقره و قلة حيلته إلا أنها بنت عليه آمالا و قصورا مصدرها قلة نضجها

خوفها الزائد عن الحد على الشقيقة الصغرى ما صنع منها إنسانة تبحث دوما عن من تتكل عليه

و عجزت عن الإستناد يوما على نفسها.

اليوم هي غائبة بعيدة تمام البعد عن سلمى

التي لن تجد الذراع التي دوما ما إحتوت حزنها

لن تحتضنها مواسية وفاة رضيعتها الوحيدة

أجبرتها الحياة و قسوتها عن عدم مواساة الأم الثكلى

و لا تعلم على ماذا ستجبرها بعد!

*****

منذ بدء الخليقة عرف الخير صراعا حادا مع الشر

منذ نزول آدم إلى الأرض و الخير و الشر يحاربان بعضهما للبعض على البقاء

أي منهما دوما يكسب؟

بل أي منهما يصنع الحضارة، التاريخ ، الحقيقة؟

في أذهاننا المحدودة بعضنا يبجل الخير و البعض الآخر يتمنى إختفاء الشر من الوجود

لكن ما تعجز عقولنا القاصرة عن فهمه أن الخير و الشر يكملان بعضهما البعض،

أحيانا نختار الشر في سبيل الخير و أحيانا بعض الخير شر لا بد منه

أعماقنا مقسومة نصفها خير و النصف الآخر شر

نصفها حب جارف و النصف الآخر عداوة قاتمة

كل نصف منهما ينتظر اللحظة المناسبة إما ليكشف روعته

أو ليكشر عن أنيابه.

حاضرها مشؤوم و مستقبلها رافض قطعا أن يستقبل أي لون بإستثناء السواد

حياتها في السجن تجاوزت الملل و الكآبة، إلى الخطورة

لم تعد رغبتها بالإنتحار و معانقة الموت بكل رحابة صدر ما يهدد حياتها

زملاءها بعض السجينات المنتهجات للعنف هو ما يعبث بمصيرها اليوم

محتفظة بطباعها القديمة الهدوء و الرصانة

مع تفكيرها الحائر حول غريمها المجهول جعلها متباعدة على الدوام

عاجزة عن ما يدور في خلد بعض النسوة اللواتي إستحلين فجأة تعكير صفو هذا الملاك

تعرضت إلى ضرب مبرح في أحد الأروقة الخالية عندما إنشغلت أعين الرقباء

الصفع و الركل و الإهانة إلى غير ذلك من الإنتهاك

و هذا ما شجعها على الإنتحار:"الخسارة مكسب أحيانا، و في حالتي مغادرة هذه الحياة الرديئة أكبر مكسب لي!"

كان ذلك قبل أن تعيدها صلاتها فجأة إلى رشدها

قبل أن تطلب العفو على مثل هذه الأفكار السوداء التي ستوصلها بخطى ثابتة نحو الجحيم.

فكرت، ترصدت، راقبت، و إعتدت بالمثل على إحداهن

ضربت و ركلت و صفعت و همست بفحيح الأفعى في أذنها: " وجودي في السجن ليس لهوا، أنا هنا لأجل جريمة قتل، و بالطعن بالسكين،

ويمكنني فعلها مرتين،

فالمصير واحد!"

و تحولت بين ليلة و ضحاها، قوتها الفارغة من وجهة نظرتها توجتها لصديقة لهن،

من خديجة الهادئة إلى خديجة المخيفة!

أصبحن يطالعنها كندا و يسعين إلى كسبها إلى جانبهن،

أحيانا بشرك تملك ما عجز عنه خيرك، فبعض الشر خير لا بد منه.

طوال حياتها تتبنى السلم مبدأ

خديجة الخلوقة و الراعية و الهادئة

أما اليوم هي فقدت ذلك الهرم و تلك الرفاهية

لم تعد لها رفاهية إختيار المبادئ التي تناسبها

اليوم هي ملقاة في قاع حفرة عميقة مظلمة

يجب أن تتحمل قوانينها المجحفة.

السنوات تمر بمرها فقط لأنها لم تعجز عن تذوق أي حلو سنة أخرى تقضيها بين هذه الجدران لا ملامح محددة لوجه تتمنى في كل ثانية تشويهه بأظافرها الحادة

وحده ياسين يزورها من حين لآخر

أصبحت تنتظر زيارته، إبتسامته الحانية، إطمأنانه عليها

ربما لأنه من طرف السيد رشدي و زوجته الطيبة

شخص لا تعرفه يعاملها بلطف و يهتم لأمرها،

هذا هو السبب و فقط،

و إختارت تصديق ذلك!

سلمى أيضا كانت تزورها، و لكن ليس بإنتظام

موت رضيعتها صنع منها امرأة أخرى شديدة الذبول

جسدها أصبح غصنا هزيلا تعبث به الرياح

كل مرة تقابل سلمى تجدها أسوء من سلمى المرة السابقة

هي ليست موجودة لتخفف عنها و سالم لم تراه أبدا بعد موت الصغيرة

لم يعد يزورها، زوجته أخبرتها أنه لا يعود للمنزل إلا قليلا

بعد موت إبنته لم تعد بالنسبة له حبه الأول، بل امرأة ملعونة عاجزة عن حماية أبناءها

لم تعد تصلح وعاء لأطفاله، و حتما لا تصلح لتكوين عائلة.

اللعين، لو كانت تقدر لأرته كيف يجرؤ على جرح صغيرتها بهذه الطريقة الفجة،

الحقير فتحت بيتها ليتزوجا فيه و سمحت لهما بأن يقيما معها راضية بل و مساعدة

في كثير من الأوقات بكل ما لها من مال و جهد

هي أعطته جوهرة أفنت شبابها في حبها و تدليلها، من يخال نفسه!

ثم توقفت سلمى عن الزيارة و لا أحد يعلم السبب،

ياسين فقط واظب على زيارتها في كل فرصة ممكنة فقد أخبرها بأنه يسعى لإعادة فتح

محل أبيه، رغم أنه لا تتعدى مقابلتها دقائق قليلة، كل واحد منهما وسم جدارا صامتا

للآخر يمنعه من تخطيه العلاقة للناظرين غريبة، الإبن و قاتلة أبويه المحتملة

حتى لأعينهما هي كذلك، يعلمان أن جيدا أن الظروف التي أوصلتهما إلى هنا ليست مواتية لهكذا صداقة

و لكن ياسين لا يهتم، هو لم يهتم قبلا ليهتم الآن.

هو أقسم لنفسه سيخرجها من هنا،

يسرح دون أن يدري أحيانا في براءة عينيها البنية،

لم يكن يعمل بأن العاملة في محلهم لها مثل هذا الجمال الناعم،

طريقه القديم المحفوفة بالمفاسد لم تكن تسمح له بأن ينظر إلى جانب الطريق لعله يصادف مكمن الخير

ربما ما حصل كان سببا لإفاقته، لتعويض ذنوبه عن طريق مساعدة هذه المسكينة.

ثقتها التي لم تمنحها لأحد قط و لو لزوجها السابق

إنتقلت دون أن تدري إلى هذا الغريب

إذ في زيارته الأخيرة وجدها تتخلى عن صمتها و تفصح عن ذعرها

أخت وحيدة مر وقت منذ زيارتها آخر مرة

منذ وفاة رضيعتها الوحيدة تصرفاتها غريبة و لا تبشر بخير،

زد على ذلك معاملة زوجها القاسية لها، المستهترة و الجارحة.

طلبت منه على إستحياء أن يتقصى أخبارها،

أن يطمئن على من تبقت لها في هذه الحياة

أن يساعدها إذا ما إحتاجت مساعدة

حتى لو تمثلت هذه الأخيرة في تخليصها من الحقير فليفعل

فليطرده شر طردة كما فعلت هي مع زوجها السابق،

لا تعلم لما عند ذكر طليقها ألصقت عيناها دون أن تدري بالأرض خجلا

أما هو فقد تلبسه غضب أسود

و لم يسأل كلاهما عن السبب.

غاب ياسين، و لمدة ليست قصيرة، هل يتطلب الإطمئنان على أختها كل هذا الوقت؟

عاشت ليالي سوداء لن تمحى من ذاكرتها، أقسى ما يمكن أن تختبره روح إنسان مسجونة هو العجز عن الإطمئنان عن أحباءه

أنفاسها متسارعة و العرق يتصبب شلالات على جسدها المرهق

تتقلب بقوة بين الأغطية الداكنة:

هي على شفا حفرة، هوة عميقة تتصاعد من فوهتها النيران،

هي على الضفة و سلمى المسكينة على الضفة الأخرى

تنظر إليها بأسف حزين،

بعجز أم ثكلى و زوجة عاشقة زهدها زوجها،

سلمى الصغيرة، مدللة أختها

تتطلع إلى الهواء حولها بتخاذل حزين، شاحبة البشرة

تقترب أكثر فأكثر من شفا الحفرة.

كانت لحظة فارغة، عندما صرخت بإسمها برعب،

عندما بادلتها صرختها بنظرة حزينة يائسة،

و فجأة

رمت بنفسها و غابت داخل الأعماق النارية،

و غابت صرخاتها بين ألسنة اللهب المتصاعدة!

إستيقظت فزعة، لاهثة،

دقات قلبها كطبول الحرب،

و خوفها على وحيدتها يشتد أكثر و أكثر.

في حياتها البعيدة، عندما كانت ترى كابوسا تركض لأحضان شقيقتها و تنامان سوية إلى الصباح

الآن هي أحست حقيقة ماذا يعني الحبس، السجن بين أربع جدران،

ماذا يعني أن تعيش خوفك وحيدا بدون أحباب يربتون على كتفك،

تطمئن بوجودهم،

أن تفقد القدرة على البحث عن نظرة، عطف أو حتى شفقة،

ملعونة هي بهذا القدر، خانتها دمعة أسرعت تتسلل فوق وجنتيها،

لم تعد تتحمل.

في الصباح شعورها لم يتحسن،

الكل يتحرك من حولها و هي رافضة ترك سريرها،

تتطلع إلى الفراغ من حولها،

لا الضحكات و الهمسات بين هاتين

أو الصراخ و الحماس حول لعبة ورق بين هؤلاء

أو البحث عن الجمال الغابر بين أطلال من أدوات زينة موضوعة على طاولة جانبية تنجح في لفت إنتباهها،

حرقة تتأجج في صدرها و لا تعلم مصدرها،

إحساس حارق يطبق على أنفاسها،

رئتيها المسكينتين عاجزتين عن إستقبال الهواء،

تحسه كشفرة حادة تجرحها بنصل لامع من الداخل

و لا سبيل لكبت النيران التي تستعر داخلها،

ترى ما الذي يحصل لسلمى؟

هتاف الحارسة أيقظها من سباتها:

–خديجة، زيارة.

فعليا كانت تركض بين الأروقة،

و الحارسة البدينة تحاول مواكبة سرعتها،

عقلها يشغل آلاف السيناريوهات عن حقيقة ما حدث لأختها،

لا شك أنها هي، أو ربما زوجها، من المؤكد أحدهما بعد أن أخبرهما ياسين،

كل ظنونها تبخرت، كل أشواقها و توقها لإحتضان إبنتها الروحية بين ذراعيها تحطم على صخرة الواقع،

فقد كان ياسين فقط بإنتظارها،

و بالتفرس في وجهه علمت أن الأخبار ليست سارة أبدا.

كان مرتبكا، هذه أول مرة تراه على هذه الحال،

لطالما كان مباشرا و جريئا

كان يتململ بعدم إرتياح في جلسته،

عينيه تنتقلان برهبة في جميع الإتجاهات عدا عينيها،

لا يعلم كيف يلقي ما في جعبته،

أمسكت بيديه فجأة ناظرة بقوة في عينيه:

–أرجوك، فقط أريد أن أعلم هل هي بخير؟

شد بأصابعه على يديها المرتجفتين، فما سيقوله لها صادم:

–لقد إنتحرت البارحة، بعد أن قتلت زوجها.

*****

فقدت الذاكرة، عجزت عن تذكر تفاصيل تلك اللحظة المشؤومة، لحظة أن أمسكت بتلابيب ياسين تهزه بعنف و تنعته بالكذب و هو لم يقاوم، تركها تفرغ شحنة صدمتها على جسده، لحظة أن صرخت رافضة كذبته البشعة، لحظة أن ضحكت بخلل من هذه النكتة البائسة فسلمى لا تفعلها، لا يمكن أن تستغني عنها و تتركها تواجه هذه الحياة القاتمة وحيدة، لا تقرر أن تتخلى عنها و تنهي حياتها من تلقاء نفسها ،

لم تعد تحس بحبالها الصوتية، تمنت العمى على النظر إلى عالم لا تتنفس فيه سلمى، مستلقية دوما في مكانها،

لم تفلح أي من السجينات في إخراجها من هذه الحالة رغم محاولاتهن الكثيرة،

دوما صامتة تمرر رفضها الغير مباشر لأي صحبة،

الأكل و الشراب أصبحت تنفر منهما و تنتظر الموت برحابة صدر،

بل تتمنى أحيانا إيداعها بزنزانة منفردة يكون الصمت و السكون رفيقها الوحيد و تبتعد عن أي مظهر للحياة.

–سلمى تركت شيئا لك!

المفتاح الذي جعلها تنهض بعد أيام طويلة من رقادها، تمشي ببطء شديد عكس المرة الفائتة تسندها نفس الحارسة، مربتة على يدها الهشة إلى أن أوصلتها إلى مكان الزيارة.

كانت صامتة، هيئتها مزرية، أ

سخر من نفسه ،

كنت تتوقع أن تجدها أفضل حالا؟

أمسك بيديها مواسيا و لم تبعده،

لم تحاول سحبها من بين أصابعه،

عيناها الغائمة وشت بأنها لم تعد تحس شيئا،

زهدت أي ردة فعل تجاه العالم.

تحسست أصابعها مضروفا ما، وضعه بين يديها هامسا:

–رسالة من سلمى، تركتها لك قبل أن ترحل.

ثم لم ينسى بأن يضيف :

–إعتني بنفسك من أجلي، لأنني أحتاجك و بشدة، و قريبا جدا ستغادرين و سنتكلم حينها.

ما أن سمعت إبتعاد خطواته حتى قربت الرسالة إلى أنفها، تحاول تشمم آخر رائحة من سلمى، قبل أن تفتح الورقة لتجري عيناها الملهوفة شوقاعلى محتواها، ما أن أكملت حتى إنفجرت ضحكا بخلل كالمجانين ،

عزيزتي خديجة،

بعد أن تتطلعي على هذه الرسالة سيتحول حبك لي إلى كره شديد لذلك لن أطيل عليك كثيرا ,و لكن أولا يجب أن تعلمي أنني أحببتك أكثر من روحي يا أختي الوحيدة.

ذلك السر الذي أمنتني عليه، عندما سألتني أخبرتك أن لا أحد غيري يعلم،

و قد كذبت،

فسالم كان يعلم.

لا أعلم كيف أو متى أو في أي ساعة حميمة بيننا وجدتني أحكي له عن طفولتي، صباي و التي لا تكتمل دون تضحياتك،

أنت، أخلاقك و سمعتك الطيبة ما جعل مرؤوسك السيد الرشدي يأتمنك على شقاء عمره، و الذي ليس بالقليل.

و من هنا بدأت الحكاية،

دون أن أدري كان يضع الخطط في رأسه، تعلمين أنه معدما على شاكلة زوجك الأول، زوجك الذي كان ضعيفا،

و زوجي خبيثا،

يبدو أن حظنا العثر يوقعنا دوما مع أشباه الرجال،

الفرق أنت بقوتك إخترت طرد زوجك خارجا، و أنا بغبائي إخترت طردك أنت.

كان يستغل حملي و هشاشة مشاعري آنذاك، أنا الأم المنتظرة و زوجته الجميلة الذان سيبنيان عائلة كبيرة معا،

و كم كنت أتوق لذلك، للعائلة الكبيرة،

لأفراد آخرون ينتمون إلينا،

إلى إمتلاء البيت ببشر غيرنا في المناسبات،

لم أخبرك يوما بأنني لطالما تمنيت عائلة أكبر من خديجة و سلمى فقط!

دوما و في غفلة منك كان يلقي بسمومه على مسامعي،

البيت ليس مشتركا بيننا، الملكية لك وحدك،

يمكنك طردنا في أي وقت و لا يمكننا أن نعترض،

و قد نجح في إخافتي، صدقا.

دون أن أدري كان كلامه كسم الأفعى ينتشر في عقلي،

لن تصدقيني إذا أقسمت لك بأن حبي لرضيعتي هو ما كان يحركني،

خفت، إرتعبت من أجد نفسي و عائلتي الصغيرة في الشارع،

و في خضم كل هذه الوساوس غفلت عن شيئ هام جدا،

غفلت عن أن أمنا إئتمنتك أنت على مسقط رأسنا لأنها تعلم أنك ستكونين على قدر الثقة،

ربما لأنك كنت تشبهين دفئ والدك و أنا أشبه برود و قسوة والدي،

سمعت أمي مرة هكذا تقول!

كانت تعلم جيدا أنك وحدك ستحافظين على فتاتها الصغيرة التي باعتك في أول فرصة،

ظنت بغبائها أنه يمكن تعويضك بعائلة جديدة، عائلة لن تفعل لي و لو ربع ما كنت تفعلينه.

تلك الليلة السوداء، خططنا لها كثيرا، طبعا بعد أن صدقت آمال زوجي الزائفة، المال سيمكننا من بناء حياة جديدة، شراء بيت جديد، و تأمين حياة طفلتنا القادمة.

و أنت لن تبقي طويلا مسجونة لأننا سنؤمن لك دزينة من المحامين لإخراجك و سيساعد في ذلك سمعتك الناصعة،

و لكن ذلك لم يحدث.

أنا من فتح هاتفك و بعث الرسالة،

أنا من دس لك المنوم في طعامك،

سالم لم يكن سيقتل ، المحل كبير و سيكون مفتوحا لأن السيد رشدي سيكون في إنتظارك،

سيتسلل دون أن يفطن به أحد و يستولي على المال و يذهب،

لكن السيد رشدي أحس بحركة غريبة عندما سمع أصوات خربشة في الداخل،

في البداية ظن أنه أنت و لكنه تفاجأ بوجود زوجي و

الذي رفض التراجع خالي الوفاض، و سدد له طعنات قاتلة بسكين صغيرة كانت بحوزته، كان مقررا أن يستعملها في فتح الخزائن.

ليلتها سالم أتى المنزل مهرولا، و أخبرني بأن خطتنا قد أخذت منحنى آخر،

و لا بد من كبش فداء،

و لم نجد سواك.

لا أعلم إن كنت أستطيع أن أطلب منك السماح بحق أيامنا الخوالي،

فقط أتوسل إليك حاولي أن تجدي لي عذرا،

سامحي امرأة خذلها جشعها لتفقد رضيعة لم تتجاوز أشهر قليلة،

و لتكتشف فجأة خيانة زوجها مع عاهرة كانت هي السبب في فعلته الشنعاء منذ البداية

و ليس نحن كما كان يتلو على مسامعي.

ما سأقوله الآن سيريحك، ورقة رابحة أحسست بحدسي بأننا سنستحقها،

لقد وثقت كل شيئ في تسجيلات و فيديو،

كلام سالم و ما حدث تلك الليلة،

لقد تبعته عندما حملك إلى المحل و تركك هناك،

هذه الدلائل كفيلة بتخليصك من مصيرك الأسود.

أرجوك، إذا ما تذكرت يوما لحظة جميلة بيننا فقط تعالي إلى قبري

و لا تتكلمي سأحس بك، روحي المتعذبة سترتاح بوجودك،

سأعلم و لو في حياة أخرى أنك لازلت تحبينني،

أختي أنا آسفة!

طلب أخير أطلبه منك و كلي خزي و مرارة،

فقط لا تتركي رضيعتي وحيدة، أرجوك زوريها دوما،

و لا تقلقي لقد أوصيت بأن أدفن بعاري بعيدا عن براءتها،

فقط ضعي ورودا على قبرها الطاهر الوحيد و لو شئت أخبريها يوما بأن الماما أحبتها كثيرا و بأن خالتها خديجة الطيبة إنتظرتها مطولا،

و بأن الله كان رحيما بها فلم يدعها تترعرع في كنف أبوين خائنين،

أختك التي ستتوسل دوما غفرانك،

سلمى.

"عفيفة"

جلست على أحر من الجمر منتظرة ضيفتي المجهولة، لا أعلم ما الذي دفعني إلى قبول دعوتها، صوتها نبأ عن امرأة في جعبتها الكثير، و أنا أكثر من مستعدة للإستماع.

طرق خفيف على الباب، تحركت على إثره بسرعة قبل أن أتمالك نفسي و أستدعي وقاري و أنا أفتحه مرحبة.

تحركت بتؤدة،ببطء شديد ينم على ثقل همها، لم أستطع رؤية وجهها جيدا، خبأت ملامحها خلف نظارة سوداء ضخمة ساهمت في درء جزء من جبينها و وجنتيها، خصلاتها تحت وشاح أسود قاتم فشل في منع بعض الشعيرات من الظهور على إستحياء،

كانت مصبوغة بلون أصفر باهت منفر دفعني رغما عني إلى التقزز،

ما هذا اللون الذي لا يليق إلا بفتيات البغاء؟

قبل أن أستدرك نفسي،

إنها إحداهن!

هذا هو السبب الذي دفعها إلى زيارتي، أنا الراكضة خلف القصص، إخترت مؤخرا الولوج إلى عالم فتيات البغاء و إكتشاف السبب الذي دفعهن إلى إختيار مثل هذه المهنة المنفرة لقمة عيش، ما الأسباب التي أدت بهن إلى دفع أنفسهن في مثل هكذا قاع!

هاتفتني و إختارت أن تلقي على مسامعي قصتها علني أوصلها إلى غيرها من الناس.

قدمت لها فنجانا من القهوة مرة كما أمرت، أمسكت ورقة و قلما بين أصابعي و قربت لها المسجل الصوتي لكي لا تفوتني أي تفصيلة ثم دعوتها إلى الحديث:

-إسمي عفيفة، و أنا على مشارف السبع و ثلاثون عاما.

مرغمة ندت عني إبتسامة ساخرة من إسمها الذي من المؤكد لا نصيب لها منه، ثم سرعان ما أخفضت ناضري خجلة، إلا أنني سمعت صوتها الساخر و هي تضيف:

-أعلم أن إسمي لا يناسب هذا العبث، حتى "المعلمة" أخبرتها برغبتي في تغييره لأنه لا يناسب الموقف.

ثم ضحكت ضحكة صفراء مضيفة:

-لكنها رفضت، برأيها إسمي سيساعدني في الحصول على زبائن أكثر، لأنهم سيشعرون بالفضول لمقابلة هذه العفيفة في الماخور.

إبتسمت بدوري، و لم أعلم ماذا علي فعله فإخترت الصمت:

-ولدت في عائلة معدمة في الريف، عشت في غرفة صغيرة مع جدتي، و مع إخوتي السبعة.

إستنكرت فجأة:

–هذا عدد لا يناسب حتما عائلة فقيرة!

قالت بلا مبالاة:

–لست الأولى من تقول هذا الكلام، لكن ألا يقول الله :"المال و البنون زينة الحياة"؟ إذا فالكل يعيش وفق هذا، الغني لا أولاد كثر له و الفقير أبدا لا يكتفي من البنون! أشرت لها برأسي أن واصلي من فضلك.

–أبي و أمي لم يكونا من هواة العمل، أمي فضلت دور مربية البيت أما أبي فكان أحيانا يشتغل أعمالا بسيطة عندما يحلو له أو عندما كان لا يجد في جيبه حق القهوة أو التبغ ،كان أهل الخير يعطفون علينا و خاصة على العجوز المريضة ما كان ينقذنا في بعض الأيام من النوم خاليي المعدة.

شيئ ما كان يحدث و لم أفهمه، شقيقاتي كن يختفين فجأة عندما يبلغن عمرا معينا، كان أحد غريب يأتي يأخذهن و يرحل و لا أراهن مرة أخرى ،

و في ذلك الوقت لم أكن أفهم ماذا يحصل و أين كن يختفين!

قاطعتها مرة أخرى:

–في أي عمر؟

–في سن السابعة أو الثامنة على أقصى تقدير.

سألتها بإستغراب:

–و أين كن يذهبن؟

لم أستطع رؤية عيناها و لكن ملامحها وشت أنها بصدد إستحضار ذكريات مريرة حاولت طردها قديما و أجبرتها على دعوتها مجددا:

-إلى الخدمة في البيوت!

برودة شلت أطرافي، صعقت و أنا أتخيل كيف لفتاة مسكينة لا زالت تقف على أعتاب الطفولة أن تجد نفسها تتحمل هكذا مسؤولية،خدمة في البيوت!!

تكنس و تمسح مع الإهانة و الإذلال النفسي و الجسدي!

بل و الأسوء أن والداها من يقومان برميها بين رحى هكذا مصير قذر!

-كان عمري حينها سبع سنوات و لم يبقى سواي أنا و إخوتي الذكور الثلاث، أتذكر جيدا ذلك اليوم عندما أتت امرأة مخيفة بيتنا و أبي يرحب بها بحفاوة

ووجه أمي الحزين يتطلع إلي بقهر كنت أجلس غاضبة لأن أبي إنتزعني من اللعب مع أقراني، كنت أنتظر ذهاب تلك المرأة بنفاذ صبر، لكي أعود للهو، لم أستوعب حينها انني ودعت براءة الطفولة منذ تلك اللحظة المشؤومة، منذ أن وطئت تلك المرأة الملعونة بيتنا، نظرات أمي العاجزة و نظري أنا المسمر على الباب أحيك الخطط بسذاجة طفلة صغيرة لكي أتسلل خارجا لم يغيبا أبدا عن بالي عندما أتذكر تلك الأيام!

قاطعتها من جديد:

-ألم تذهبي إلى المدرسة؟

أجابت بلا مبالاة:

-لا، لم نفعل، أبي كان يرفض ذهابنا إلى هناك، يقول دوما بأن مستقبلنا معلوم فلم يرد أن يصعب الأمر على نفسه.

ثم أضافت بحنين:

–كنت أرى أقراني يذهبون دوما إلى المدرسة بثياب جميلة و محافظ أجمل، كثيرا ما راقبتهم مشدوهة، أتذكر مرة أمسكت بأصدقائي و هم ينجزون واجباتهم المدرسية تحت السور بسرعة شديدة، سألتهم لما تفعلون هذا فقالو أن المعلمة ستضربهم إن لم ينجزو واجباتهم، لا أعرف لما تمنيت وقتها أن أكون محلهم، أن أنجز واجباتي و أخاف من ضرب المعلمة، حتى ضرب الضرب أحسسته كربتة حانية على كتفي في سبيل ورقة و قلم واحدة!

رغما عني خانتني دمعة مشفقة على الفتاة الصغيرة و هي رأتها، إلا أنها تداركت الأمر سريعا و هي تواصل:

–ذلك اليوم المشؤوم أخرجتني أمي من الغرفة، و أخبرتني بأنني سأغادر مع هذه المرأة، لم تخبرني الحقيقة كاملة ربما خوفا علي من الصدمة،

بل قالت بأنني سأرافق أولادها الصغار الذين هم في مثل عمري و ألعب معهم، و لا أدري لما لم أصدقها، رفضت بقوة، لم أرد مغادرة العالم الذي إعتدت عليه، هربت و إختبأت في فرننا القديم، لكن أبي كشفني و إنهال علي ضربا مبرحا و لكنني كافحت، رفست بقوة و ألصقت ساقاي بالرماد تحت قدمي و إزددت عنادا، و صرخت بأنني لا أريد الذهاب، إلا أنه لم يرحمني، أدخلني غصبا في سيارتها و تركني و ذهب.

كنت ذاهلة، هل يعقل أن هذا أب؟

الأب هو الراعي و المسؤول على أهل بيته، كيف له أن يفعل هذا ببناته الصغيرات؟

كيف لأب أن يرمي بصغيراته في هكذا مصير مجهول؟

أي إنسان هذا بل أي حيوان هو؟

حتى الحيوانات البكماء تحتضن صغارها و تتحمل المخاطر في سبيل إطعامهم!

لم أشأ أن أفسد قصتها، صمتت و داخلي كان يغلي، شاهدتها تخرج سيجارة قبل أن تستأذن:

-أيمكنني التدخين؟

-إعتبري نفسك في بيتك، أرجوك.

-علي أن أحذرك بأنك ستندمين، فأنا لا أستطيع التنفس بعيدا عن تبغي، خاصة في مثل هذه اللحظات المشحونة.

أشرت برأسي أن لا بأس.

-إلى أين وصلنا؟ آه! المرحلة الثانية من حياتي، عفيفة الخادمة.

-تلك المرأة كان إسمها السيدة نيرمين، أم لطفلين يكبرانني قليلا، أول ما دخلت إلى منزلها تغيرت تماما، أصبحت نسخة من خادمة صغيرة.

ثم أضافت و الغصة تخنقها رغما عني:

-قصت لي شعري، كم بكيت دموع القهر و أنا أشاهد خصلاتي الطويلة المتموجة ملقاة على الأرض كبضاعة بالية، جدتي دوما ما كانت تخبرني أن شعري هو الأجمل بين أقراني و تلك المرأة الشريرة حرمتني منه!

كانت تضع وشاحا قبيحا على رأسي و تدعني أنام على الأرض في المطبخ، كنت أعيش أسوء حياة يمكن أن تعيشها فتاة في مثل سني، أستيقظ قبل الجميع لأمارس أعمال التنظيف، أصعد على سطل بالمقلوب حتى أصل لحوض الجلي و أغسل

الصحون مرة بعد مرة لأن السيدة تكره الجراثيم، أملأ السطل قليلا قليلا بالماء لأن جسدي الهش عاجزا عن حمل الأثقال.

-ألم تفكري في الهرب؟

-في البداية سلمت بالعقل البسيط لطفلة في مثل عمري ألا نجاة، و أن هذه حياتي طوال عمري، مكثت على هذه الحال عشر سنوات.

سألتها غير مصدقة:

-تحملت عشر سنوات؟

كست اللامبالاة ملامحها، يبدو أنها لم تسأل نفسها يوما هذا السؤال:

-لا أعرف، ربما لأنني لم أكن أملك حلا آخر، إعتدت هذا الإذلال، كنت صغيرة جدا، حتى التلفاز غير مسوح لي بمشاهدته فلم أكن أعلم ماهية الحياة خارج تلك الجدران، ذلك ما جعلني أتماسك رغما عني.

-كيف خرجت من هناك؟

-مع بلوغي سن السادسة عشرة أو ربما أقل بقليل شهدت شيئا مريبا، زوجها القذر دوما يحاول لمس جسدي بطريقة مقززة، لم أفهم ما الذي كنت أعيشه، التلامس الخبيث، تلميحاته الوقحة، لا أحد موجود لأسأله ما الذي كان يحصل لي،

شل عقلي مع صغرسني و حياتي الفارغة لم أستطع أن أستوعب ماذا يجري،

و أنني كنت أتعرض للتحرش من قبل عجوز متصابي!

سألتها خوفا من الإجابة:

-و إبنيه، ألم...

–لا لا إبنيه ورثا قسوة أمهما، لا يكلمانني إلا حين يطلبان شيئا.

ثم أضافت مبتسمة:

–لقد جعلتني أتذكر، كنت أتلصص عليهما دوما عندما كنت صغيرة، كنت أحب تنظيف غرفتهما جدا، غرفتهما الجميلة، لن أنساها من بالي ما حييت ، الطلاء الزاهي الألوان، المفارش الزرقاء، الألعاب في كل مكان، ذلك القطار و تلك الدمى، لم أرى مثيلا لها في حياتي و أنا الفتاة التي عاشت فقرا مدقعا و إذلالا لا مثيل له،

أمسكت يوما واحدة بيدي، تحسست بأصابعي قماشها الناعم، كانت لحظة طفولة مسروقة من طفولتي الضائعة، و لكن صفعة!

إنهالت علي من حيث لا أدري، السيدة كشفتني ألعب بدمى أولادها دون إذنها، إتهمتني بمحاولة سرقتها و فتشت مطولا بين أغراضي القليلة، قبل أن توجه لي إنذارا شديد اللهجة بان لا دخول لغرفة الجنة تلك، و أن أنسى رؤية الألعاب مرة أخرى، و رغما عني رضخت.

نيران حارقة تأججت في صدري، والداها ثم هذه الحقيرة، ماذا يخبأ بعد شر البشر؟ هناك أصناف يشعرونك بالتقزز لأنك تنتمي إليهم،

كتلة الشر هذه أتمنى أن تكون نهايتها بشعة، سأدعو لها بمصير شنيع لا تبرأ بعده أبدا.

–و قد تكرر الأمر، و امسكتني متلبسة مرة أخرى و لكن عندما كبرت، و لذنب لا دخل لي به، إذ دخل زوجها المتصابي إلى المطبخ مستغلا إستغراقها في النوم و غياب

ولديه، و مد يديه القذرتين محاولا التحرش بي، و لكن سرعان ما لحقت به فاضحة إياه، كانت تبكي بحرقة و تسبه بأقذع الألفاظ

ألا يخجل من سنه؟ كيف يفضل خادمة نكرة عليها هي بنت الحسب و النسب؟

كانت نظرتها شيطانية و هي تقر:

-كانت فرحتي لا تقدر بثمن و أنا أواجه دموعها لأول مرة، عشقت لحظة قهرها أمامي، تلك الليلة كانت من أجمل ليالي حياتي!

إبتسمت مشفقة على المراهقة الصغيرة، التي عاشت إستغلالا بشعا في سبيل نشوة إنتقام من مخدومتها، أنستها ما كانت تتعرض له من تحرش جنسي على يد حثالة.

ثم هتفت دون وعي:

-و إبتدأت المرحلة الثانية من حياتي!

لا شك أنها كانت أفضل!

هكذا ضننت و أنا أراقب إبتسامتها المتسعة، لا شك أنها عادت لأهلها بعد ذلك، لكن ظنوني تلك لم تكن حقيقية إذ صرحت:

-الحقيقة هي إقترحت علي إعادتي إلى الجحر الذي جئت منه، إلا أنني رفضت، لم أعد أريدهم أهلا في حياتي، ربما لو كنت رجعت لرموني إلى مصير أسوء، و لن أستطيع إنقاذ نفسي هذه الكرة.

-إذن، ماذا فعلت؟

أشعلت سيجارتها الثالثة و أردفت::

-ببساطة غادرت، حملت أغراضي القليلة و همت على وجهي أياما و ليالي طويلة في الشارع، تسولت حتى أسد جوعي، و تعرفت أثناء ذلك على علي.

يبدو أن القصة بدأت تأخذ منحنى آخر و قلمي المسكين عاجز عن مجاراة أحداثها المتواترة:

-من علي ؟

-حبي الأول!

أجابت بنشوى للذكرى، ملامحها و إبتسامتها التي شملت كل وجهها تسبح في ذكرى جميلة قديمة عاشتها مراهقة بصدد البحث عن مأوى فوجدته بين أحضان الحب:

-كيف كان علي ؟

لا زالت تحلق في حلاوة الذكريات و هي ترد:

–رجلا وسيما، قويا و محترما، كانت له نقاط قوة واضحة، ثباته، رزانته، حكمته رغم بساطة تعليمه، بالإضافة إلى مدى تأثير شهامة رجل على فتاة متشردة لم ترى من الحياة سوى مرها.

قلت مازحة:

–و علي هذا ألم يكن لديه نقاط ضعف مثلنا؟

ضحكت مجيبة ببديهية:

–عزيزتي، إذا بحثت عن نقاط ضعف أحد ما فسيدفن رأسه في الرمال كالنعامة من الخزي، أما إذا سألته عن نقاط قوته فالجميع فلاسفة!

صمتت قليلا ثم أضافت متنهدة:

–و هذا ما حدث، لقد درأ عني ضعفه و قلة حيلته، في مواجهة والدين قررا خطبته لإبنة عمه ميسور الحال و الوحيدة، بالطبع قبل أن يطرب مسامعي بإعتذاراته الكثيرة و تضحيته التي لا تقدر بثمن في سبيلي حتى لا أتعرض لأي أذى من عائلته، لم ينسى أن ينال مني كل ما إستطاع الحصول عليه، القلب و الجسد، و بصورة متكاملة، و هذا كان سقوطي الأول.

*****

في هذه المرحلة، ذكرتني عفيفة بنفسي، أنا و سقوطي مع أشباه الذكور، لأنهم أبعد ما يكونو عن الرجال، لحظة سقوطي أنا أيضا، ربما أخف بكثير من سقوطها لأنها كانت داخل إطار شرعي، و لكن الألم نفسه لا يختلف!

–هل أحببته؟

أجابت دون مواربة:

–لا أعرف، الآن عندما أتذكره، لا أعلم كنه إحساسي تحديدا، ربما رأيت فيه الكثير، الحامي عندما ترك لي ورشته مأوى، كنت طوال حياتي أظن بأنني مجرد نكرة لا قيمة لي و في عينيه رأيت نفسي غالية، و نسيت بأنني كذلك لأنني امرأة لا أحد لها، و جسدي سيكون محل طمع الكثيرين،

أولهم هو!

أمسكت المطفئة بأصابعها الرفيعة قبل أن تضع فيها سيجارتها الأخيرة، ثم رفعت رأسها إلي دون أن تتخلى عن نظارتها الداكنة:

–و أنت هل أحببت يوما؟

رغما عني إرتبكت، و هممت بأن أنهرها بأنني انا من يستمع و هي من يجب عليها أن تتكلم، إلا أنني لا أعلم كيف حركت رأسي حركة خرقاء و همست لها:

–لا أعلم!

–متزوجة؟

–مطلقة!

تدفقت من بين شفتاي ككلمة خبيثة، لا زلت أخجل منها، أطأطأ رأسي خجلا إذا ما علم أحدهم بذلك و نظر لي تلك النظرة اللعينة:

أنت فاشلة!

أإلا أنها لم تفعل؟، ما صدمني أنها بشكل ما قد توقعت ذلك، بل و ضحكت بتفكه:

-واضح!

-كيف علمت؟

-عيناك من أخبراني، أنت ذكية و سريعة البديهة، صعب جدا على إمرأة مثلك أن تجد زوجا أو أن تحافظ عليه!

إبتسمت بحماقة، ماذا تريد أن تقول؟

-ضننت بأنني مميزة!

شقت ضحكتها شرنقة الهدوء و هي تفسر:

-الرجل عندما يقول بأنك مميزة لأنك ذكية، فهو فقط يرضيك و لكنه لا يرضي نفسه، لأنه عندما يريد الزواج ببساطة لن ينظر إلى عقلك، إلا في حدود حسن إدارتك للبيت و للمصروف أو إذا كنت تديرين عملا مربحا، إذ كما يجب أن تكوني بريئة، بسيطة الهيئة و المظهر، فعلى عقلك أن يكون كذلك أيضا، إذ بعد سنوات سترهقه المسؤليات: الأبناء، المصاريف و العشيقة أيضا في كثير من الأحيان، لن ينقصه ذكاءك حينها!

ثم غمزت لي بوقاحة:

-صدقيني، أحد زبائني الوفيين من أخبرني بذلك!

لا أطيق الغوص في أمواجي بل أسعى دوما إلى تجاهلها،

إتجهت نحو بحرها هي الذي لم أسبر أغواره بعد:

–و ماذا حصل بعد أن فقدت مأواك الوحيد؟

أشعلت سيجارة جديدة عجزت عن معرفة عددها و قالت:

–أقمت في الشارع، أهيم على وجهي، جعت و تعبت كثيرا، و بعت جسدي أكثر.

كانت المرة الأولى في المحطة، عندما سال لعابي و أنا أتطلع بحسرة إلى ذلك الخبز الشهي الذي تبيعه تلك العجوز، و بالنظر إلى ملامحها المتجهمة علمت بأن التسول لن يجدي نفعا.

–إذا فقد صدق من قال بأن الرجل إذا جاع باع شرفه، و المرأة إذا جاعت باعت جسدها!

إبتسمت بأسى و خيل إلي بأنني ألمح دمعة ندية تجري على وجنتها الشاحبة:

–صدقي أو لا، لقد ذكرني ذلك الخبز بخبزنا الريفي الذي كانت تصنعه أمي، لم نكن نحصل عليه دائما لأن فقرنا كان يحول دون ذلك، رغما عني شعرت بالحنين، الفرن القديم الذي شهد ذعري، إنهالت علي الذكريات البعيدة و أنا أمسك ذلك الرغيف الطاهر بين يدي المحملتين بالقذارة.

إنها امرأة فولاذية، لو كنت مكانها لإنتحرت منذ زمن، فعلا الوالدين رزق ، دعوت الله أن يطيل في عمر أبي و أمي!

–ألم تفكري بالعودة إلى بلدك؟

كانت نبرتها قاسية:

–لا، لم أفكر لأنني لم أرد التفكير، لقد أصبحت أمقتهم و منذ زمن بعيد، كرهي لهم كان شديدا لدرجة أني رحبت بدهسي تحت القطار على رؤية وجوههم مرة أخرى!

سألتها بتوجس:

–لما لم تبحثي عن قوت عيشك و تعيشي بشرف؟

ضحكت بسخرية:

–و أين تعلمت الشرف حتى أعيشه؟ لا فقرنا البعيد و كسل أبي و لا إذلالي و دهس طفولتي بالوحل علمني ذلك!

ثم أضافت:

–توالت المرات، و إستأجرت غرفة في حي قديم و أصبحت سيرتي على كل لسان، كنت أعمل بطريقة عشوائية حتى إلتقيت وائل.

–وائل؟

–كان زبوني الأخير في الغرفة القديمة، أقنعني بأن أعمل لحسابه مع فتياته الأخريات، و بالربح فقط دون خسارة.

–و قبلت؟

هتفت بقوة:

–بالطبع، سأعيش في محيط لن أحس فيه بالغربة، لن أضطر لمواجهة إمتعاض النسوة كل مرة أذهب فيها إلى السوق، لن يدير مدعي الرجولة وجهه عندما يراني بعد أن يتوقف عن المجيئ إلي بفترة قصيرة بحجة توبة كاذبة!

إستنتجت سريعا:

–وهذا كان سقوطك الثاني؟

إستهزأت بسخرية سوداء:

–و الآن موعد سقوطي الأخير!

*****

لم أستطع إخفاء فضولي و أنا أسألها:

–و كيف كان؟

حينها فقط، إمتدت يداها المشذبة بعناية لتخلع عن وجهها نظارتها السوداء، و تحل وشاحها الأسود، لتقع أمام ناظري امرأة مشوهة و بكل ما للكلمة من معنى، امرأة مستهلكة، ذلك أول إنطباع يخطر في ذهني، بالنظر إلى الخصلات الشقراء الفاقعة، العينين في لون القهوة و التي لا شك تم إحتساءها من عشرات الشاربين إلا أن تركوها فاقدة للنكهة، لا لون و لا رائحة.

–لا يهم كيف كان، و لكن ما يهم أن هذه الأنا بفضله!

لم أستطيع إمساك الكلمة التي فرت من بين شفتاي:

–تشرفنا يا عفيفة!

صدرت عنها إبتسامة بائسة، حروفها توازي حركات يديها:

–هذه هي عفيفة، فتاة الليل أو النهار لا فارق، المهم أنها موجودة لتلبية الرغبات و في كل وقت، فتاة البغاء التي لها فلسفتها الخاصة، التي تعلم جيدا بأن النساء أنواع:

زوجات و عشيقات

و نساء لا يصلحن لشيئ!

–و أي نوع أنت؟

قهقهت مجيبة:

–من المؤكد لست من النوع الأول، و حاولت دوما أن أكون من النوع الثاني.

و مرة ثانية يقفز سؤالي دون أن أنجح في كبته:

–كيف حاولت؟

تلبستها روح امرأة خبيرة و هي تضع ساقا فوق الأخرى و تجيب:

–أعرف فقط ما علي معرفته، الزوجة تعلم الكثير و تريد أكثر، أما العشيقة فتعلم القليل و تريد الأقل.

لا زالت ملامحي عاجزة عن الفهم، فأضافت:

–العشيقة يجب أن تستغني عن الذكاء و في نفس الوقت يجب أن تكون ذكية.

سألتها بغباء:

–و كيف ذلك؟

–العشيقة تعلم جيدا أن الرجل إذا ما أراد صحبتها لا يبحث عن الذكاء، بل بالعكس الرجال الذين يأتون إلى الماخور إما يريدون عن التعبير عن غباءهم بوضوح و ذلك من خلال الكذب و سرد قصص لا صحة فيها ،

أحيانا يريدون إخفاء جبنهم و ضعفهم بين أذرع فاجرة، و علينا أن ندعي بأننا نصدق صولاتهم و جولاتهم، إذ يمكن أن نمثل حتى الإنبهار و الإعجاب الكاذب و الذهول أمام آراءه الرجولية الشهمة، إلى أن ننسيه أنه بماخور و بصدد إبهار فتاة ليل ربما لا تفهم عشر ما يقول،

علينا دوما أن نشكره على القليل و نطلب الأقل و ذلك ما سيبقيه زبونا وفيا!

–و الزوجة فاشلة في هذا؟

–تمام الفشل! بسعيها للحصول على كل شيئ تنفره دون أن تدري، حتى بحملها لجميع الأثقال و الأوزار فذلك لن يجدي، حتى و إن لم يرحل فسيتوق حتما للرحيل.

شددت على حروفي:

–هكذا زيجات محكومة بالغباء!

جاء دورها لتشفق علي، قالت بصبر:

–أكثر الزيجات في العالم محكومة بالغباء، أفيقي حبيبتي، نحن أبعد ما يكون عن العالم الطوباوي، هنا القليل فقط من نجح في إرساء المودة و الرحمة، و ذلك عندما يكون الرجل أسطوريا و هؤلاء لا يتكررون كثيرا، بل نجدهم مرة كل قرن، كالظواهر الطبيعية!

إنفجرت ضحكا، المومس أيضا لها آراءها المنطقية عن العلاقة الزوجية، ربما أفضل من المتزوجة نفسها!

–أما الزيجات الأخرى عزيزتي فيحكمها الغباء، التغاضي و التجاهل عن الأحمال و الأخطاء، و ليس الخيانة فحسب بل حتى الأعباء المالية و الأبناء،

مثلي أنك غبية، إلى أن تصل المركب إلى الشاطئ!

–و متى يحصل ذلك؟

–عندما يدعوك قبرك رسميا و تقبلين الحياة بكل تعقيداتها قبلة طريفة أخيرة!

إبتسمت مجددا، فواصلت:

–عندما وصلت إلى ذلك الوكر، تغيرت كثيرا، الشعر الطبيعي للخجولات أما الفاقع فهو يعبر عن جرأتك، يجب أن لا يتخلى وجهك أبدا عن طلاءات مساحيق التجميل حتى يعبر بوضوح عن فجر حضورك، إضحكي ببلاهة لكل ما يقوله الزبون، و إستخدمي ذكاءك، إذا كان فاقد الثقة في نفسه فأمدحي كثيرا و أشكريه و لو على القليل، أما إذا كان من هؤلاء المغرورين المنفوشين فناقشي بغباء و لا تسقطي بسهولة، لأنه ينفر من الصيد السهل.

سرحت عيناها لا إراديا، يبدو من إنفراج ثغرها الخجول أنه ماض سعيد:

–أحببت كثيرا، بقلب فتي ثم بقلب متعب، بقلب راغب في الهروب من ذلك المستنقع ثم بقلب يرجو فقط ونيسا و لو داخل الهاوية، شيئا شيئا فهمت ألا فائدة، هذه هي حياتي ثم تعودت عليها و أصبحت هذه هي حياتي الطبيعية، و لم أعلم متى أحسست بصعوبة الإنسلاخ عنها.

سألتها لآخر مرة:

–كيف هي حياتك هناك؟ هل يحسنون معاشرتك؟

–حياتي وحيدة و ضعيفة و امرأة كثر إستهلاكها إلى أن أصبحت خاوية، لا وجود للإحسان هناك إذا ما أردت تغطية حاجياتي الأساسية يجب أن أعمل،

إنه وكر دعارة، و ليس جمعية خيرية!

أفرغت جعبتها من الكلام، تطلعت بغموض إلى سيجارتها صديقتها الوفية بين أصابعها عندما سمعت سؤالي المتردد:

–هل كانت هذه قصة عفيفة الحقيقية؟

في داخلي أيقنت جيدا أن من أمامي ليست عفيفة، هي لم تكن موجودة قط بين رحى هذه الحياة البائسة، تلك الطفلة ماتت ما أن وطأت جحر تلك الحثالة.

–أنا أصلا أشعر أنني لم يتبق لي من عفيفة سوى إسمها، عفيفة الحقيقة تركتها مختبأة ببراءة طفولتها التي لم تواجه خدش المهانة قط داخل ذلك الفرن القديم يحميها رماده من كل جانب، ربما إلى الآن لا زالت روحها تحوم هناك، بنقاء الصغار، عفيفة التي أمامك هي إنسانة نال منها الذل و القهر و الإهانة و أعاد تركيبها من جديد الفجور و العهر، حتى تولد هذه النكرة التي أمامك، ماض تعيس بلا حاضر و بلا مستقبل، كائن يتنفس فقط.

ثم إستقامت فجأة، رغبت بشدة أن أطيل الجلسة، أن أعرض عليها المساعدة، إلا أنها كانت تسرع كمن ضاق ذرعا بالبقاء، ضاق ذرعا بدعوة الذكريات الأليمة، وضعت وشاحها كيفما إتفق و نظارتها السوداء على عينيها، لكن قبل أن ترحل إلتفتت إلي قائلة بصوت ميت:

–عفيفة هذه هي من النوع الثالث، لم تعد تصلح لشيئ!

نبذة عن المؤلِّفة

ملاك خليفة

– تونس

– طالبة حقوق

أعمال سابقة:

– لا توجد